في الطفولة

محاولة التوفيق بين البيئتين الغربية والمغربية

Scanned by CamScanner

1 القراءة التوجيهية

1.1- العنوان

لا أحد يجادل في أن العنوان يحتل مرتبة أساسية في وجود المؤلَّف الأدبي، فهو بداية النص وإشارته الأولى، والميزة التي تطبع المؤلَّف وتَسِمُه. ولقد لقي العنوان اهتماما كبيرا من لدن الدارسين المحدثين بعد أن كان يعد هامشا لا قيمة له، وملفوظا يقع خارج دائرة النص أو العمل الأدبي. وتصبح للعنوان وظيفته حينما يتم ربطه، بكيفية منهجية، بالعمل الأدبي ؛ ذلك أن العنوان يوجه قراءة العمل، ويغنيه بمعان جديدة تتصل بإسعاف القارئ على استخلاص بنية النص الدلالية، وتحديد موضوعاته. إن العنوان جزء من العمل الأدبي، لأنه يستبقه ويبقى متصلا به في كل مراحل قراءته.

والمؤلَّف الذي بين أيدينا لم يخرج عن هذا التقليد من حيث اتخاذه عنوانا دالا : **في الطفولة**. وفي معالجتنا للعنوان سنركز على الجوانب الآتية :

أ- البنية

جاء عنوان مؤلف عبد المجيد بن جلون عبارة عن جملة اسمية، المبتدإ فيها محذوف، وشبه الجملة من الجار والمجرور في محل رفع خبر. والخبر متعلق بالمبتدإ الذي يمكن تقديره هكذا : في الطفولة أحداث، معلومات، معطيات، أخبار،... وهكذا فإن غياب المبتدإ يحمل المتلقي على تقدير العنصر الغائب، وهو ما يمكن أن يحفزه على الافتراض والتوقع. أما حرف الجر «في» فحامل لدلالة زمانية. ومن هنا يمكن القول إنَّ العنونة زمانية لأنها تقصر عمل المؤلف على رصد مرحلة من مراحل عمر كاتبها وهي الطفولة.

ب- الدلالة

لاشك أن وجود حرف الجر «في» ضمن مكونات العنوان يقيِّد المعنى ويصرفه إلى دلالة مخصوصة. فلو جاء العنوان مجردا من حرف الجر لصارت دلالة العنوان، والمؤلف برمته، دالة على مطلق الطفولة، وهو ما سيدفع المتلقي إلى الاعتقاد بأن العمل الأدبي يغطي مرحلة الطفولة كلها، وهو ما لا يقصده مؤلف عبد المجيد بن جلون بدليل قوله في النص الختامي : «وهذه السطور التي كتبتُها بعيدة عن الاستقراء، وإن كانتْ وافيةَ المَعالمِ» (ص 278).

ج- الوظيفة

يشير ليو هوك (Leo Hoek) (وهو من أهم من درس العنوان دراسة مفصلة ومعمقة) إلى أن وظائف العنوان كثيرة ومتعددة. ونظرا لأهمية المؤلف الذي نحن بصدده، فإن العنوان **في الطفولة** له الوظائف الأساسية التالية :

وظيفة التسمية	الوظيفة الأيقونية / البصرية	الوظيفة الموضوعاتية
ذلك أن العنوان مثل اسم العلم يطبع المُسمَّى ويميزه.	لقد وضع العنوان في أسفل الغلاف، وكتب بخط ولون مميزين حتى تكون له الإثارة البصرية المطلوبة.	في الطفولة عنوان جامع، محدد لموضوعة السيرة الذاتية، ومقَنِّنٌ لمدلولاتها، ومن هنا فإن هذا العنوان لايترك مجالا لخرق مقصدية المؤلِّف.

Scanned by CamScanner

2.1- صورة الغلاف

يتكون الغلاف من مشهدين :

أ ـ مشهد سفلي، يتكون من صورة حائط وقد كُسِّر جزؤه الأوسط العلوي، بالإضافة إلى صورة بلاط يتكون من معالم تزيينية مغربية (الزليج في صورة غير واضحة).

ب ـ مشهد علوي، هو عبارة عن انعكاس مرآوي لبعض معالم المشهد السفلي، تماما كما لو أن المشهد الأول ينتمي إلى زمن مضى، وأن المشهد الثاني ذو صلة بالحاضر. ويمكن أن نجد صلة بين صورة الغلاف وطبيعة السيرة الذاتية : إن السيرة رؤية حالية لما عاشه الكاتب في زمن ولّى وانتهى. ويتعذّرُ عليه استرجاعه بتفاصيله كما لو كان جداراً منيعاً يستدعي خرمه لرؤية ما يحجبه ويخفيه.

3.1- الجنس الأدبي

أ ـ من الملاحظ أن الكاتب لم يفصح عن جنس مؤلفه لا في الغلاف، ولا على الصفحة الأولى، بل لم يتخذ لعنوان المؤلف عنوانا فرعيا يقيد جنسه ودلالته. غير أننا نجد في الصفحة 278، إشارة واضحة الدلالة : «وبعد، فإن **قصة طفولتي** يجب أن تقف هنا (...) ولذلك فإن من المناسب أن أمسك، فإن عالما ثالثا قد امتد أمامي لا أستطيع أن أزعم فيه أني كنتُ طفلا». من الواضح أن المرحلة التي يركز عليها المؤلِّف هي مرحلة الطفولة، وعلى الرغم من كون **محكي الطفولة** يمتلك بعض الميزات التي تفصله عن السيرة الذاتية، فإن جل السير الذاتية تنطلق بدهياً من هذه المرحلة لاستعراض ما سواها من مراحل حياة كُتّابها. كما وسم الكاتب نصه بأنه «قصة» وفي ذلك إشارة إلى إمكانية وجود مظاهر خيالية وتخييلية في المؤلَّف. وهو ما أورده **أحمد عبد السلام البقالي** على لسان ابن الكاتب **وائل بن جلون** : «... إن الأسرة تنوي إعادة طبع رواية الوالد **في الطفولة**،...» (ص 3). فأن يكون المؤلَّف سيرة ذاتية ورواية وقصة ليس مما يثير الاستغراب، ذلك لأن كل سيرة ذاتية هي قصة ورواية، دون أن يكون العكس صحيحا، باعتبارهما يشتركان في تشخيص الأحداث وسردها وفق أشكال متقاربة.

ب ـ من الصعب الاستدلال على وجود مظاهر سير ذاتية قديما، عند العرب، رغم وجود بذور لها فيما كتبه سلمان الفارسي أو فيما أورده أبو الفرج الأصفهاني في كتاب **الأغاني**، أو فيما أوردته هيلاري ليلباتريك في كتابها **سيرة الشاعر الأموي نصيب**، أو كتاب **عيون الأنباء في طبقات الأطباء** لابن أبي أصيبعة، أو في رسالة أبي حيان التوحيدي المسماة **الصداقة والصديق**، أو في كتاب **المنقذ من الضلال** للغزالي، أو حتى في كتاب ابن خلدون **التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا**[1] لأن الجنس السير ذاتي محدد في الزمان والمكان، مرتبط بتوفر الوعي بالذات، والاستعداد للخروج من المعارف التقليدية ؛ أي أن بروز السيرة الذاتية يفترض ثورة فكرية جديدة[2] تصبح فيها للفرد المنزلة الرفيعة. وعليه فإن السيرة الذاتية هي برنامج لإعادة بناء وحدة الحياة على امتداد زمني قد يطول أو يقصر، مثلما هو الحال بالنسبة لمؤلف **في الطفولة**. وقد استمدت «السيرة الذاتية» سلطتها من النجاح الذي لقيته **اعترافات** المفكر الفرنسي جان جاك روسو Rousseau، (J.J)، فقد جعل منها تسمية لممارسة سردية متصلة بحياة الفرد وما شهده الحقل الثقافي والاجتماعي الغربي من تطورات[3].

ولعل **فيليب لوجون** (Philippe Lejeune) هو أشهر من درس السيرة الذاتية دراسة منهجية من زاوية سردية.

Scanned by CamScanner

تتحدد السيرة الذاتية عنده بالميثاق الذي يربطها بالقارئ، أكثر مما تتحدد بعناصرها الشكلية، وعليه فإن السيرة الذاتية، لدى **فيليب لوجون**، تعرف بكونها :

« ... المحكي الاسترجاعي النثري الذي يقوم به فرد ما عن وجوده الخاص، حينما يركز على حياته الفردية ، وعلى تاريخ شخصيته خصوصا»[4].

إن هذا التعريف ينص على ثلاثة عناصر تنتمي إلى مقولات مختلفة :

1 ـ شكل اللغة	2 ـ الموضوع المطروق	3 ـ وضعية المؤلف
أ ـ محكي. ب ـ نثري .	أ ـ الحياة الفردية. ب ـ تاريخ شخصية.	أ ـ تطابق المؤلف والسارد والشخصية. ب ـ اعتماد منظور استرجاعي.

ومؤلَّف **في الطفولة** محكي نثري يتعلق بالحياة الخاصة **لعبد المجيد بن جلون** كما عاشها في فترة محددة (الطفولة) مع التركيز على تاريخه الشخصي وما يقترن به من أفكار وتصورات ومواقف ومشاعر وأحاسيس. وفي هذا المؤلف نجد أن كاتب هذه السيرة الذاتية هو، في الآن نفسه، مَنْ يتولى عملية السرد (السارد)، وهو محور الأحداث وبؤرتها (الشخصية الرئيسة)[5].

4.1- الكاتب

عبد المجيد بن جلون

عبد المجيد بن جلون (1919-1981) كاتب مغربي، اتسمت كتاباته بالتنوع بين الأجناس الأدبية المختلفة. وقد ترك لنا مؤلفات ونصوصًا تعرف قارئها بالكثير عن المغرب : عن أهله وثقافته، وعن فترة الاستعمار الفرنسي، وعن مقاومة المغاربة له ونضالهم من أجل الاستقلال.

ولد **عبد المجيد بن جلون** بالدار البيضاء، لكنه قضى طفولته مع أسرته في إنجلترا، ثم عاد به والده إلى فاس، حيث التحق فيها بجامعة القرويين، ثم أرسل للدراسة في جامعة القاهرة التي نال منها الدبلوم العالي للصحافة.

نشر **عبد المجيد بن جلون** مقاله الأول في مجلة **الرسالة** المصرية عام 1936، قبل أن يصل إلى القاهرة بعامين، كما نشر قصصه الأولى في مجلة **الثقافة** المصرية، ثم ضمّنها ـ فيما بعد ـ في مجموعته القصصية الرائدة في الأدب المغربي، (وادي الدماء). ثم تابع ابن جلون نشر القصص والمقالات والموضوعات في الصحف والمجلات القاهرية طوال إقامته في العاصمة المصرية التي امتدت ثمانية عشر عاما.

وفي القاهرة، أسس **عبد المجيد بن جلون مكتب المغرب العربي** عام 1947، وتولى أمانته العامة. وبعد أن نال المغرب الاستقلال، عاد إليه ليرأس تحرير **جريدة العلم**. ثم عمل سفيرًا للمغرب في باكستان، وعاد إلى وطنه عام 1961 ليواصل العمل في وزارة الخارجية، دون أن ينقطع عن الكتابة والترجمة والنشر في الصحف المغربية.

Scanned by CamScanner

من مؤلفات بن جلون : **وادي الدماء** ، **لولا الإنسان** (قصص)، **هذه مراكش**، **مارس استقلالك**، **براعم** (ديوان شعري)، وسيرته الذاتية **في الطفولة** نشرت لأول مرة في حلقات أسبوعية بمجلة **رسالة المغرب**، 1949. وقد كانت السيرة الذاتية في ذلك الوقت لونا جديداً من الكتابة وفتحًا في الأدب المغربي، الذي يعدّ **عبد المجيد بن جلون** أحد أهم رواده المحدثين. وكانت آخر أعماله المنشورة قبل وفاته قصيدة بعنوان **زورق ينساب**، سنة 1961.

5.1- المناصات

أ ـ المقدمة

تشكل المقدمة أحد أنواع الخطابات التي تحتل موقعا ماديا حول النص، نظراً لوجودها المستقل في فضاء الكتاب نفسه، شأنها شأن الإهداء والاستشهاد والعناوين. فهي إذاً نص استهلالي يمثل خطاباً سابقا لنص معين أو لاحق له، كما يؤكد جيرار جنيت (G.Genette)(6). وتتميز المقدمة بالتكرار من طبعة إلى أخرى لضرورة آنية. وهكذا، فإن اختيار المقدمة ليس اختيارا محايدا ولا اعتباطيا.

وفي مؤلَّف **في الطفولة**، نجد كل خصائص المقدمة. فهي تنتمي إلى صنف النصوص الاستهلالية، وهي بذلك تحتل موقعا منفصلا عن متن السيرة الذاتية. إنها تنتمي إلى نوع **المقدمات الغيرية** لأن كاتبها هو الأديب المغربي **أحمد عبد السلام البقالي**، وليس كاتب السيرة الذاتية **في الطفولة** لأن هذا الأخير قد أضحى خارج عالم الأحياء، ومن ثم لن يكون له أي رد فعل معين حيال ما سيقوله المقدِّم.

ب ـ قضايا الخطاب المقدماتي

• **الحافز على التقديم :**

ـ «كلما التقيتُ بالبروفسور **وائل بن جلون** ذكرني، بابتسامته الحبية وبصوته الخفيض القوي وأدبه الجم وسمته الرزين المهيب بالمرحوم والده الأديب الكبير والشاعر الرقيق والمترجم الدقيق **عبد المجيد بن جلون**، صاحب «**وادي الدماء**» و«**في الطفولة**» رحبت بكتابة هذه التحية، ولا أقول التقديم، لأسباب كثيرة أهمها شعوري بعلاقة خاصة معه، علاقة تشبه القرابة، قرابة الأخ الأكبر في آصرة الأدب والفكر، ورفيق المسار » (صص 3-4).

إن أول ما نستنتجه، أن المقدمة كتبت بعد موت المؤلِّف. وأن الحافز على التقديم طلب ابن **عبد المجيد بن جلون** من **أحمد عبد السلام البقالي** أن يتولى كتابة تقديم لطبعة 2005 لنص **في الطفولة**. ومما حفز المقدم على الإقدام على ذلك أن أسرة الأديب هي التي وافقت على هذا الأمر. فهناك إجماع، وهناك اختيار، ومن هنا تأخذ هذه المقدمة قيمتها. فالقرب من الكاتب، واختيار الأسرة هما العاملان اللذان حفزا **أحمد عبد السلام البقالي** على كتابة التقديم.

Scanned by CamScanner

• **المقارنة بين سيرة المقدّم وسيرة المقدّم له :**

ـ «فقد كنتُ أجد دائما توازيا في مسارينا، رغم فارق السن، وتباعد مسقط الرأس (...) وما زال يدفئ قلبي كلما تذكرته» (صص 4-6).

لم ينس المقدّم أن يُفَصِّل في القواسم المشتركة التي تُصَوِّغُ قيمة هذا التقديم، فهي ثمرة مقارنة بين مساري الكاتبين **عبد المجيد بن جلون وأحمد عبد السلام البقالي**. وقد ركز المقدّم على أوجه التشابه التالية :

أ ـ بداية الرحلة إلى الأدب مبكرا.

ب ـ البداية شاعرا ثم التحول إلى كتابة القصة والرواية.

ج ـ كتابة سيرة ذاتية.

د ـ عدم الاكتفاء بلغة أجنبية واحدة.

هـ ـ تكريس كلا الكاتبين أدبهما للقضايا الوطنية والاجتماعية، خاصة محاربة الاستعمار والجهل والتخلف.

و ـ تكريس جزء من الوقت لترجمة أعمال أدبية وعلمية وتاريخية إلى اللغة العربية.

ز ـ الكتابة في أدب الطفل.

وبعد رصد أوجه التشابه بين مسيرة الكاتبين عرض المُقدِّم بعض اللحظات التي عززت إعجابه بالمقَدَّم له. ومما لا تخطئه عين، فإن هناك شبه تماهٍ بين المقدَّم والمقدِّم له، الشيء الذي يعني أن المقدِّم لم يكتف بالحديث عن سيرة ابن جلون، لكنه اهتبلها فرصة للحديث عن نفسه، وإجراء مقارنة بين مسيرتي أديبين، وليس مقارنة بين إبداعين فقط.

• **تقييم المقدّم لنص في الطفولة :**

«إذا كانت بعض الأعمال الأدبية تقاليع موسمية تصادف نجاحا باهرا في فترة فراغ بعينها، ... فإن سيرة **عبد المجيد بن جلون** معلمة باقية (...) وطابت قراءتكم» (ص 6).

وختم المقدِّم تقديمه بتقييم خاص انصب على إبراز عناصر الجودة والخصوصية التالية :

أ ـ خلود السيرة الذاتية.

ب ـ ارتباطها بجوهر الإنسان المطلق.

ج ـ التعامل معها بوصفها نصا مخترقا لحدود الزمان والمكان.

ج ـ خصائص الخطاب المقدماتي

سبق أن أكدنا، أن كاتب المقدمة شخص آخر غير المؤلِّف. وأن المقدمة كتبت بعد وفاة هذا الأخير، ومن أجل ألا يظهر المقدِّم شخصا مقحما على النص، كان من الضروري أن تأتي الموافقة من لدن عائلة الكاتب. ومن هنا فإن التقديم لا يعكس مقصدية كاتب **في الطفولة**، وهذا ما جعل المقدِّم يسمي مقدمته تحية. وعليه فإن المقدمة ما دامت غيرية فإنها لا تترجم الموضوعة الأساسية كما في المقدمات الذاتية جلها (هذا ما أردت فعله)(7).

Scanned by CamScanner

وتتميز هذه المقدمة بأسلوب سردي أدبي يتجلى من خلال عناصر الربط الزمنية (كلما التقيت، حين قدم، وأثناء الحديث)، ووجود ثلاثة ضمائر تحيل على المتكلم «أنا»، والمقدَّم له «هو»، وابن المقدِّم له «هو». ولعل لضمير المتكلم المفرد سلطته النحوية المتمثلة في فرض نفسه كاتبا مؤهلا دون غيره لتقديم هذا المؤلَّف، سلطة تترجم وضعية قارئ تحول، بحكم ما خول إليه، إلى محدد للحقيقة. كما أن المقدمة تعكس استراتيجية أسلوبية خاصة تذكرنا بالأسلوب السردي الذي استعمله **أحمد عبد السلام البقالي** في نصوصه القصصية (على نحو : **الفجر الكاذب، وليد المحبة، ...**) والروائية (على نحو : **الطوفان الأزرق، وسأبكي يوم ترجعين ...**)

د ـ ظهر الغلاف

قصر المناص، في ظهر الغلاف، على معطيين اثنين، أحدهما تلفظي والآخر بصري (صورة). والواضح أن الغلاف يخلو من أي مقطع تمثيلي من نص السيرة الذاتية. وعليه، فإن النص التلفظي يرسم خطا تصاعديا لحياة الكاتب عبد المجيد بن جلون، تم التركيز فيه على تاريخ ميلاده، وإقامته في إنجلترا والشهادات التي حصل عليها، مساهماته في المجالات السياسية والحزبية والديبلوماسية التي باشرها المغرب قبل الاستقلال وبعده. كما يظهر ظهر الغلاف تثمين المؤسسات الأدبية لأعماله بمنحه جوائز هامة. واختتم هذا الجزء بالإشارة إلى أهم مؤلفاته المتداولة بين القراء.

أما على المستوى البصري، فقد أثبتت للكاتب صورة وقد تقدم به العمر، لكن مع ملاحظة دالة كون الصورة غير ملونة. والغرض من وضع الصورة خلق نوع من التطابق بين شخصية السيرة الذاتية وبين ما يمثله بعدها الواقعي والمرجعي.

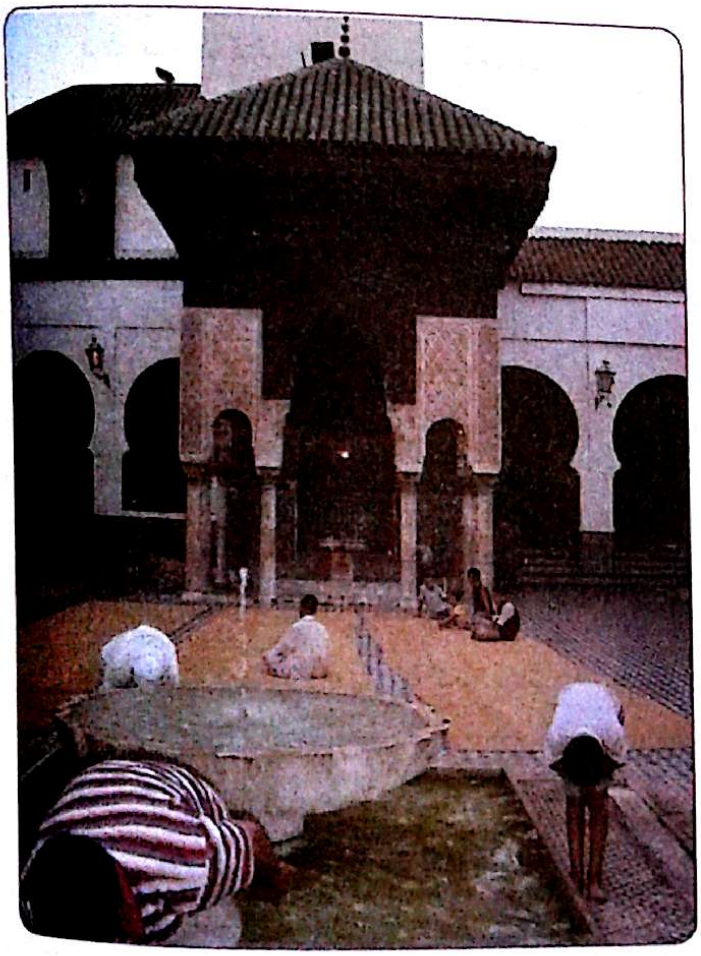

جامع القرويين بفاس
http://www2.ac-lille.fr

Scanned by CamScanner

2 القراءة التحليلية

1.2- التحليل الجزئي

1.2.2- النص الافتتاحي

(من الصفحة 7 إلى الصفحة 9)

لو أنني كنت أعرف شيئا عن الأفلاك والأبراج وطوالع الكواكب لما تفعني ذلك في معرفة هل اليوم الذي ولدت فيه كان يوم سعد أو يوم نحس، ذلك أنني لا أجهل هذه الأشياء فحسب، ولكنني أجهل اليوم الذي ولدت فيه أيضاً.

ولست حانقًا في ذلك على أحد، لأنه يتناسب مع الغموض الذي أحسُّه كلما حاولت أن أتذكر أيامي الأولى، وماذا يفيد الإنسان أن يعرف الساعة واليوم والشهر والسنة التي ولد فيها، ما دامت السنون التي سوف يقضيها في الحياة مجهولة، ومادام هناك مقياس للطفولة والشباب والكهولة والشيخوخة، وهو أصدق في الدلالة على عمره من أيام يشغل نفسه بعدّها.

لا أستطيع أن أتذكر بالطبع كيف شرعت في الحياة، ولكن لا شك في أنني كنت أرفع صوتي بالعويل في الشهر الأول، ولا شك أن ملامحي كانت رخوة لاتمكن الناظر إليها من تخيل الشكل الذي سيتخذه في النهاية هذا المخلوق الجديد. ولا شك أن أول ما أحببته من الدنيا الجديدة التي أقبلت عليها كان هو الرضاع، وأن أول مكروه أصابني هو الفطام.

إنني كلما انحدرت مع الماضي أفضت بي الحوادث في النهاية إلى عالم غامض، مثل الذي استفاق من حلم نسيه قبل أن يستفيق، لا يمنعه هذا النسيان من تذكر العاطفة التي كانت مسيطرة عليه أثناءه، فهو يستطيع أن يقول إن الحلم كان مزعجاً أو هنيئا، بالرغم من أنه لا يتذكر منه شيئا. أما العاطفة التي أكاد أشعر بأنها كانت مسيطرة على نفسي في ذلك الحين، فهي مزيج مبهم من الاستغراب والخوف والتطلع. كنت كالذي اكتشف حدود مدينة قديمة فجأة، أستغرب للفجأة، وأخاف مما قد يكون في داخل المدينة، ولكن تطلعي الممزوج بالفضول يدفع خطواتي إليها.

حتى إذا كبرت قليلاً واستأنست بالمحيط الذي ولدت فيه بدأ الأمن يعود إلى نفسي. ولكن هذه المرحلة أيضاً لاتدخل في دائرة الذكريات. قيل إنني ولدت في مدينة الدار البيضاء ثم قضيت في تلك المدينة بضعة أشهر، ثم ركبت البحر بين ذراعي أمي إلى إنجلترا. وقد كان ذلك بعد الحرب العالمية الأولى، أي أنني مررت في بلاد حديثة العهد بالحرب، ومع ذلك لا أذكر منها شيئا يدل على أنني كنت أنتفع بالنظر أو التمييز.

وقد عرفت الحياة لأول مرة في مدينة منشستر، ولابد أن وقتا ليس بالقصير قد مر قبل أن تبتدئ ذاكرتي في اختزان الصور. والصور الأولى القديمة التي أحتفظ بها في نفسي قليلة تعد على أصابع اليد.

فتحت عيني فإذا أنا في منزل قديم يحيط به الغموض والإبهام، كانت تقع خلفه حديقة كبيرة كثيرا ما أشرفت عليها من النافذة، وتقع أمامه حديقة صغيرة يحدها حاجز حديدي طويل يقوم بين

Scanned by CamScanner

المنزل والشارع ويخترقها ممشى قصير يفضي إلى بوابة عالية من حديد. كان البيت يتألف من ثلاثة أدوار، كبير الأبهاء والغرف ضخم النوافذ ملون الزجاج. وكانت هذه الأوصاف تجعلني لا أطمئن إليه أبدا. ولم يكن للحديقة الخلفية الكبيرة بستاني، ولذلك كانت وحشية النباتات، تنتهي بأشجار ضخمة تبعث رعباً مبهما في النفس. وكنت أرى من آن لآخر هرّا أو كلبا يجري خلال الأعشاب، ثم يقفز فوق الحاجز ويختفي. وكثيرا ما ساءلت نفسي عن هذه الأشياء التي تتحرك ومع ذلك فهي ليست في شكل الإنسان، وما أزال أذكر أن هرًا عظيم الهامة داهمني ذات يوم، فصرخت حتى كاد يغمى عليّ. ومما زاد في يقيني من أن هذه المخلوقات مخلوقات شريرة أن أهل المنزل كانوا يطاردونها. وكانت النوافذ الضخمة ذات الزجاج الملون تثير في نفسي القلق لضخامتها وللأضواء الملونة الحزينة التي كانت تنفذ منها، أضف إلى هذا الضباب والثلوج وشدة البرد، فقد تعاون ذلك كله على إثارة خيالي العاجز، حتى تأصل الرعب في نفسي.

أما الأشخاص الذين كانوا حولي فهم أبي وأمي والمربية. وكانت علاقتي بالمربية أمتن من علاقتي بأبي الذي كان يغيب عن المنزل طول النهار فلا أراه إلا ليلاً، وأمتن من علاقتي بأمي فقد كانت شابة ضعيفة؛ لا تمكنها صحتها الواهية من الاهتمام بي.

وكانت المربية مثلنا من مراكش، ولم أكن أفارقها لا في الليل ولا في النهار، وكنت أستغرب لكثرة ما تعرف، فهي لا تنفك تحدثني عن بلاد بعيدة تقول إننا جئنا منها، بلاد تشبه أحداثها أحداث الخرافات والأساطير، وكانت تروي لي كذلك أقاصيص الصغار. وقد كان لمثل هذه الأساطير عليّ تأثير شديد حتى نشأ عندي بعد ذلك ميل إليها، وقد أثارت في نفسي عالما يعج بالأشباح والحيوانات والمخلوقات الخيالية.

وقد كنت متأكدا من أننا أربعة أشخاص نعيش في هذا المنزل، كما كنت متأكدا من أنني أعرف كل غرفه ومداخله ومخارجه، بحيث لم يكن عندي أي شك في أنه لا يمكن أن يكون هناك أحد لم أره، فما راعني ذات يوم إلا أننا أصبحنا خمسة أشخاص ! فمن أين أتى هذا الشخص الخامس؟! هو طفلة صغيرة اندست بيننا وأزعجتنا بعويلها وصراخها. وقد كنت أعرف أن الذين يزورونا ليسوا منا، فلا داعي للاستغراب من وجودهم، ولكن هذه الطفلة منا وهم يقولون عنها إنها أختي.

راقني جدًا أن تكون لي أخت. ولست أستطيع أن أنسى الغبطة التي شعرت بها عندما رفعوني لأنظر إليها وهي نائمة في مهدها. ومن يدري،! لعلها أعادت إلى ذهني ذكريات كانت قريبة مني يومذاك، ولكنها ضاعت مني الآن بعد أن تراكمت عليها الأيام والسنون.

ـ أهمية النص الافتتاحي :

النص الافتتاحي ليس مجرد نص يأتي في بداية المؤلَّف، وإنما هو إحدى الاستراتيجيات التي تلجأ إليها تقاليد الكتابة لبلوغ غايات ملموسة. إن **النص الافتتاحي** يختزل، في الجملة، أهم مقصديات الكاتب، ومن ثمة فهو بمثابة ميثاق بين الكاتب والمتلقي من أجل الكشف عن بعض مظاهر «لعبة» الكتابة. ففي حيز هذا النص نجد أجوبة عن الأسئلة التالية : من ؟ ماذا ؟ لماذا ؟ متى ؟ أين ؟، كما نجد فيه أهم معالم البرنامج الحكائي، وما

Scanned by CamScanner

يتصل به من قوى فاعلة محورية، وما يميز كل ذلك من فضاءات وانتقاءات أسلوبية خاصة.

أ- تعرُّف الحدث

استهل الكاتب **نصه الافتتاحي** بجملة من التأملات والنظرات فيما يكتنف ميلاده من غموض، مستبعدا أهمية معرفة ساعة الميلاد واليوم والشهر والسنة مادامت كل مقاييس الحياة ثابتة، ثم خلص، بعد ذلك، إلى القول إن العاطفة التي سيطرت عليه صغيراً هي مزيج من الاستغراب والخوف والتطلع.

ولد الكاتب بمدينة الدار البيضاء، وقضى فيها بضعة أشهر ليغادرها إلى مدينة منشستر صحبة أهله. وقد كان ذلك بعد سنوات قليلة من نهاية الحرب العالمية الأولى. عاش هناك في منزل كبير وفخم ورغم ذلك كان يثير في نفسية الكاتب مشاعر غامضة. وإلى جانبه كان هناك الأب والأم والمربية. وكانت بينه وبين المربية صلة وطيدة لأن أباه كان كثير الغياب، أما أمه فكانت شابة ضعيفة لا تستطيع العناية به. وصحبة المربية سيتشبع الكاتب بألوان من القصص والحكايات المرتبطة بالأرض التي ولد فيها. ومما أشاع في نفسه السعادة ازدياد أخت له.

مما سبق نتبين بعض ملامح **الرهان** الذي يتمثل في تشخيص المفارقة بين عالمين مختلفين ؛ العالم الذي فتح الكاتب عينيه عليه (الغرب) والعالم الذي استشفه من خلال حكايات وقصص المربية (المشرق / المغرب).

لعل أهم **مغزى** لهذا الحدث أنه سيكون بمثابة بداية وعي الكاتب بالفروق بين هذين العالمين، ومؤشرا على نوعية الصراع الذي سيعيشه لاحقا.

ب- القوى الفاعلة

يتصدر الكاتب شخصيات هذا النص لأنه محور السرد، وإلى جانبه نجد أربع شخصيات أخرى : الأب والأم والمربية والأخت الصغيرة. فهو ما يزال صغيرا لكنه يمتلك قدرة على الملاحظة والاستنتاج، وهو مفعم بما يميز الأطفال من قدرات خيالية وتعابير خاصة. وأبوه كما يشير الفصل كثير الغياب، أما الأم فشابة ضعيفة لم تتمكن من العناية به. وقد احتلت مكانها المربية التي كانت من أصل مغربي.

ولقد قامت بين الكاتب وهذه الشخصيات علاقات مختلفة، لكن أقوى هذه العلاقات وأشدها تأثيرا ما كان بين الكاتب والمربية التي كانت تجالسه نهارا ولا تتركه ليلا إلا بعد أن تحكي له حكايات وقصصا غريبة.

ويمكن أن نعيد صياغة هذه العلاقات بين القوى الفاعلة على النحو الآتي :

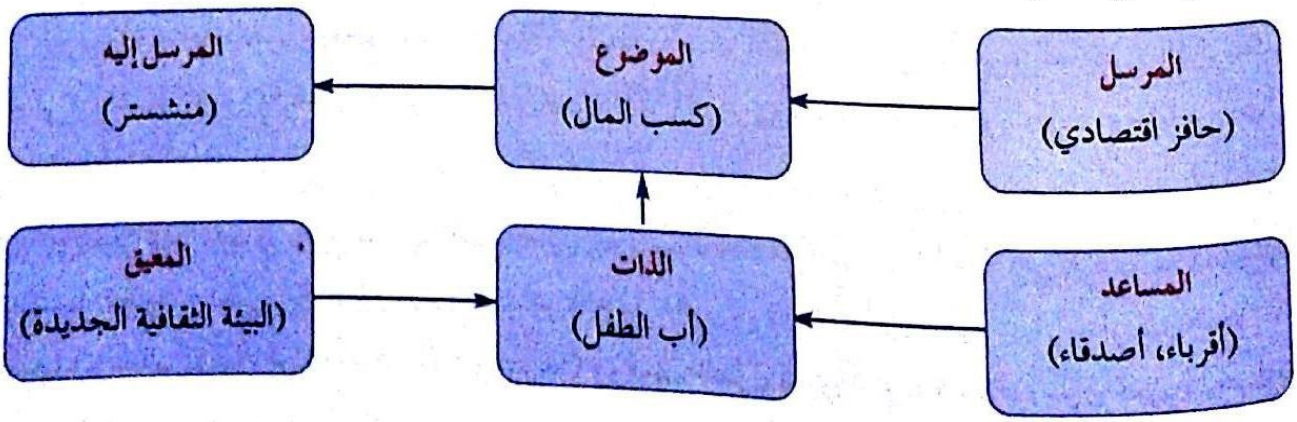

Scanned by CamScanner

ج ـ البعد النفسي

يقوم هذا النص على جملة من الرهانات النفسية لعل أهمها الغور في ماضي الكاتب ومحاولة استكناه جوانبه الغامضة. ومن ذلك محاولة الكشف عن العلاقات التي قامت بين الطفل ومحيطه الصغير. فقد كان يحس بغياب الأب ويدرك قسوة عدم تمكن الأم من العناية به، لكنه في المقابل كان يجد سعادته إلى جانب مربيته التي وفرت له أجواء من المتعة والخيال إلى جانب أنها كانت تقدم أجوبة عن أسئلته جلها.

ومن مظاهر نفسية الكاتب/ الطفل في هذا النص نوع المشاعر والتخيلات التي تولدت لديه سواء بفعل حكايات المربية أو بفعل ما كانت تستثيره لديه الخلفية الكبيرة للحديقة. فقد كانت الأشجار والنباتات والقطط والكلاب تزرع خوفا، بل رعبا لا نظير له، في نفسية الكاتب / الطفل. فالنباتات متوحشة، والقطط والكلاب مخلوقات شريرة. بل إن الكاتب/ الطفل كان يجد في النوافذ الضخمة ذات الزجاج الملون مصدرا للقلق والحزن. ومثل هذه المشاعر والعناصر التي أثارتها تذكرنا بحالات نفسية نجدها في نصوص روائية إنجليزية. فما أثار الخوف والرعب والقلق في نفسية الكاتب/ الطفل هو وليد علاقة خاصة بين الطفل ومحيطه الخاص.

د ـ البعد الاجتماعي

يكتب عبد المجيد بن جلون هذا النصّ وعينه على البيئة التي نشأ وتربى فيها ضمن سياق زمكاني محدد (بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، مدينة منشستر)، وفي إطار علاقة أسرية تتميز بخصائص هامة، منها اشتغال الأب النهار كله وعودته ليلا، وضعف الأم، وحضور المربية التي تمكنت من بسط سلطتها على الطفل بدل سلطة الأسرة. كما نجد أن هذا الفصل يميز بين ثقافتين وهما : الثقافة التي فتح عليها الكاتب عينيه (الثقافة الغربية)، والثقافة التي تحيل عليها حكايات المربية وقصصها (الثقافة المشرقية / المغربية) التي كانت تغذي ذاكرة الطفل بعالم يعج بالأشباح والحيوانات والمخلوقات الخيالية.

هـ ـ الأسلوب

يتميز الأسلوب النثري، في هذا النص، بتغير ملحوظ على مستوى المعجم والدلالة والموضوعات والانتقاءات البلاغية والأسلوبية. فهناك أسلوب نثري سلس يخلو من التكلف الذي طبع النثر العربي فيما يعرف بعصر الانحطاط والجمود، أي العصر الذي اتجهت فيه اهتمامات الكاتب العربي إلى عناصر الشكل الأدبي دون دلالاته. والواضح ان اختيار هذه السهولة ينم عن فهم ماجريات العصر وتبدل آليات التلقي عند القارئ العربي، بعامة، والمغربي بخاصة.

ومن أهم خصائص **المعجم** توظيف ألفاظ مرتبطة بالتذكر (أتذكر، أيامي الأولى، الماضي، الذكريات، ذاكرتي، اختزان الصور، الصور الأولى، فتحت عيني، أذكر) وأخرى شديدة الصلة بنمو الكاتب ومشاعره حيال نفسه ومحيطه الصغير.

ويتميز هذا الفصل **بطابع سردي واضح** يتولى فيه السارد (الطفل) سرد بداياته الأولى في مدينة منشستر. كما يتميز بطابع وصفي، خاصة وصف **المشاعر** (أجهل، أول ما أحببته، أول مكروه، الاستغراب، الخوف، التطلع) ووصف **الأشخاص** (وخاصة الأم والمربية) ووصف **المنزل** الذي أقام به السارد (منزل قديم ، يحيط به

Scanned by CamScanner

الغموض والإبهام، خلفه حديقة كبيرة، يتألف من ثلاثة أدوار،...). كما نلاحظ أن **ضمير المتكلم المفرد** كثير الورود لكون السارد يباشر حديثا عن نفسه وينقل ماحوله أكانوا مخلوقات حية أم أشياء (لو كنت أعرف شيئا، لما نفعني، ولدت، أجهل، لست حانقا على أحد، لا أستطيع أن أتذكر...). ويميل السارد إلى توظيف **الأسلوب الخبري** الذي يتلاءم مع تقنية استرجاع الماضي.

و ـ استخراج البنية

يتكون هذا الفصل من **المتواليات الحكائية** الآتية :

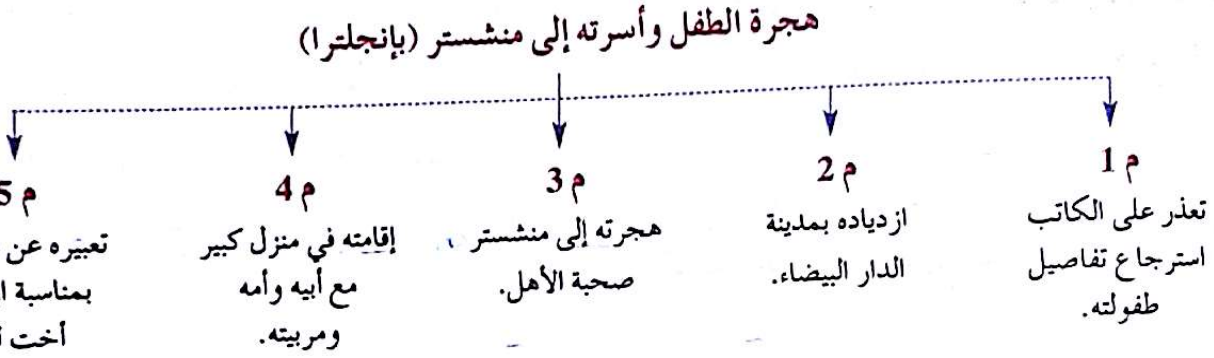

2.1- تحليل النص الوسطي

(من الصفحة 136 إلى الصفحة 141 ـ بتصرف)

عندما زرت جدتي ذات مساء أصرت علي أن أقضي عندها الليلة، فاعتذرت بأنني لا أستطيع أن أنام إلا إذا وضعت رأسي على وسادتي، فأرسلت جدتي في طلب الوسادة السحرية التي أخذ هذا الطفل المدلل على نفسه ألا يضع رأسه إلا عليها، ومنذ تلك الليلة ظلت الوسادة تتبعني إلى أي مكان أقضي فيه الليل خارج المنزل.

فلما كنت على أهبة مغادرة البلاد المغادرة الطويلة، وذهبت إلى محطة القطار، كنت أحمل معي تلك الوسادة، فلم يكن من المستغرب أن يدسها والدي تحت ذراعي، وقد أدهشني حقا، ولكنني قدرته، أن والدي يودعني وهو يمعن في احترام صبيانياتي...

وعندما هممتُ باختراق الباب بعد أن ودعتُ أهل المنزل استوقفتني جدتي الباكية وقذفت في وجهي بعض الملح، ألا رحمها الله لقد أرادت بذلك أن تضمن رؤيتي مرة أخرى، ولكن الموت خيبَ آمالها، وسارت القافلة في الظلام حول غلام على عتبة الشباب لتودعه عند محطة القطار هذه المعتمة المعزولة المتواضعة، وتأخر القطار فأخذ الغلام يتأمل ـ ووسادته تحت إبطه ـ وجه والده، وتذكر الحرقات التي عاناها وهو يودع أهل المنزل، واستغرب لاستهانته بالقدرة على مغادرة البلاد لأول مرة، واستسخف الفرح الذي انتابه حينما سمح له بالسفر، كما استسخف الجزع الذي أصابه منذُ بضعة أيام حينما كادت السلطة تحولُ بينه وبين ما يريد، وكانت مئات الخواطر تتصارع في نفسه، وكان المستقبل يتراقص أمام مخيلته بصور شتى تتباين تمام التباين..

Scanned by CamScanner

وبالرغم من كل ما كان يصطرع في نفسه، أثناء تلك الليلة الغامضة من ليالي أكتوبر من آمال وعواطف ونزعات ومخاوف وتوجسات، ظلت عيناه مركزتين على ذلك الوجه الوقور، واستطاع أن يلحظ بالرغم من كل ما كان يعانيه، أن وراء تلك السحنة الصارمة قلبا يخفق بشدة.

... وفجأة تردد في سكون الليل صفير... ثم بدا بعد ذلك دخان أبيض في سحمة الليل تتخلله شرارات حمراء، فتردد في قلبي صفير مثل الصفير..

لن أنسى ما حييت الدمعتين اللتين ترقرقتا في عيني والدي وهو يعانقني العناق الأخير .. وما كدتُ أصعد أنا والزميل الذي كان يرافقني عبد الكريم بن ثابت[8] رحمه الله العربة حتى عادت القاطرة تستجمع أنفاسها، وسمع هديرها كما لو كانت تعجم عود قدرتها على فصم كل العرى التي تربطني بالماضي...

كان زميلي يجلس في مواجهتي ويبادلني الحماقة مدة طويلة من الوقت، وكان كل واحد منا يلقي التبعة على صاحبه في هذه الورطة التي وقعنا فيها طوعا واختيارا، وكان القطار يزحف بنا نحو مدينة وجدة ..

سرني في مدينة وجدة أن أشعر بأن مقاليدي قد أصبحت بيدي، فليس هناك من يستطيع أن يأمرني، فأممت مع زميلي متجرا من متاجر الملابس وابتعنا بذلة إفرنجية، وبذلك تمكنتُ من تحقيق رغبة طالما جاش بها صدري وعجزت عن تحقيقها، وهي أن أخلع هذه الثياب الفضفاضة التي حبست فيها منذ رجعتُ من منشستر، وأعود إلى ثيابي القديمة، فلقد أشاعت في طفولتي الكهولةَ... ولما غادرنا المتجر كنا حقيقةً مخلوقين جديدين تحررتْ عضلاتهما وخفت خطواتهما، وشعرا بأنهما يعودان إلى الصبا ولا يغادرانه.

قضينا يوما في وجدة، وحان أن نفارقها، فلما وصلنا إلى محطة القطار سلمنا رجال شرطة المدينة إلى رجال شرطة الجزائر، وإذا بي أجدني أمام شرطي ضخم الأنحاء أخذ يتأملني ساخراً، وكأنه يقارن في نفسه بين ضخامته وضآلة بنيتي، وبدا عليه منذ اللحظة الأولى ما يدل على شعوره بأنه عثر على صيد ثمين... وما كاد يسألني سؤالا أو سؤالين حتى تأكد من أن فراسته لا تخطئ، ذلك أنني توجستُ منه شراً فوضعت يدي على صدري أتحسس مكان قصيدة وطنية كانت في جيب سترتي، فقد خيل إلي أن فراسته لمستها. وما كاد الرجل - عفا الله عنه - يتأكد من صدق فراسته حتى دسَّ يده في صدري دساً، ثم أخرجها بورقة، فقلتُ في نفسي، وقد ازداد اضطرابي «لعن الله الشعر والشياطين التي أوحت بقرضه» ثم استرقتُ النظر إلى الورقة فإذا بها قائمة كتبٍ... لقد أخطأ الرجل القصيدة، ثم أتى بعض التصرفات التي دلت على أن عقله في مثل كثافة جسمه، وأخذ يسألني «ما معنى هذا ؟».

- قائمة بأسماء كتب.

- كتب ؟ كفى تدليساً.

Scanned by CamScanner

وسرعان ما انتفخت أوداجه وبدا عليه الاعتزاز بالنفس فأصدر أمره بأن أتبعه إلى مكتب الرئيس فلم يكن لي بدٌّ من أن أطيعَ. ولما كنتُ أعلم أن الأمر جد كل الجد، وأن القائمة قد تفضي إلى القصيدة، وأن القصيدة قد تخلق بعض العراقيل لأن فيها تعبيرا عن الرأي، فقد تمكنتُ من تمزيقها وأنا أتبعه بين الجماهير إلى مكتب الرئيس. اخترق الباب الزجاجي فاخترقته من خلفه خفيف الحركة بعد أن تخلصتُ من العبء الثقيل..، وإذا بنا نقف معا أمام مكتب رئيسه، وكان رجلا ظريفا حقا، فقد رفع إلى الشرطي عينين مثقلتين بالسهاد كما لو كان قضى عدة سنوات لم يغمض له فيها جفن، وأخذ يتأمل كلامه في حزن ... وقد استمع الرئيس في كآبة إلى كلامه، ثم نقل نظرته الحزينة من جسم الشرطي الضخم إلى جسمي النحيل، ومن جسمي النحيل إلى جسم الشرطي الضخم...، ثم أخذ - طيب الله ذكراه - الورقة من يد الشرطي ليدفع بها في وجهه وهو يتأفف...

قضينا اليوم التالي في مدينة وهران ضيفين على شيخ مغربي، وكان متفانيا ... ورأى الشيخ المغربي أن يستمد من تجاربه الطويلة في الحياة ما ينصحنا به، فأوصانا بأنْ نشتري تذكرة لركوب سطح الباخرة ثم نستأجر غرفة أحد البحارة لنقضي فيها الليلة بين وهران ومرسيليا، وبذلك نوفر عددا من الفرنكات وندخرها لما قد يصادفنا في الطريق، وكانت الفكرة بالنسبة لحالتنا المالية رائعة....

ثم من مرسيليا إلى الاسكندرية، ومن الإسكندرية إلى القاهرة، وبوصولي إلى محطة القاهرة، وصلتُ إلى أولى محطات شبابي بعد أن غادرت آخر محطات الطفولة...

- **اقرإ النص الوسطي قراءة متأنية وفاحصة، ثم أنجز ما يلي مسترشدا بالخطوات الآتية :**

أ - الحدث

- لخص الأحداث التي وقعت بين النصين الافتتاحي (الفصل الأول) والوسطي (الفصل الثالث والعشرون) في أسطر معدودة.
- أبرز الحدث الرئيس في أربعة أسطر.
- لم اصطحب الشرطي الكاتبَ إلى مكتب رئيسه ؟
- لماذا تحمل الكاتب وزميله كل مشاق السفر من البيضاء إلى القاهرة مرورا بوهران ومرسيليا والإسكندرية ؟
- ما الرهان الذي توخاه الكاتب من وراء سرده لوقائع السفر ؟

ب - القوى الفاعلة

- بيّنْ سمات القوى الفاعلة، ووظائفها مستأنسا بخانات الجدول التالي :

Scanned by CamScanner

القوى الفاعلة	سماتها	وظائفها
الشخصية الرئيسة		
الجدة		
الأب		
الزميل (عبد الكريم بن ثابت)		
الشرطي الجزائري		
الشيخ المغربي		

ـ بم تفسر ذكر الكاتب إحدى الشخصيات باسمها الحقيقي (عبد الكريم بن ثابت) ؟

ـ ارصد مكونات البنية العاملية، في هذا النص، مسترشدا بالتوجيهات التالية :

المرسل	المرسل إليه	الذات	الموضوع	المساعد	المعيق
حدد العامل الذي حرّك الأحداث.	إلى أي وجهة تتحرك الأحداث ؟	من يقوم بالدور الرئيس ؟	ما الذي ترغب فيه الذات ؟	من ساعد الذات على تحقيق مبتغاها ؟	من وقف في طريقها وحاول أن يحول بينها وبين بلوغ غايتها ؟
.....	.....	.....	.....	.....	.....
.....	.....	.....	.....	.....	.....

ـ أُرسم خطاطة عاملية مستأنسا بالجدول السابق لبيان كيف نسجت القوى الفاعلة العلاقة فيما بينها.

ج ـ البعد النفسي

ـ لم جزعت الجدة والأب حينما أراد الكاتب أن يسافر إلى القاهرة ؟

ـ أوضح الدلالة النفسية لتخلص الكاتب من اللباس المغربي الفضفاض.

ـ بين سبب تضامن الشيخ المغربي مع الكاتب وزميله.

ـ حدد الدلالات التي يوحي بها مكتب رئيس شرطة الجزائر.

د ـ البعد الاجتماعي

ـ إذا علمت أن الكاتب سافر إلى القاهرة في شهر أكتوبر من سنة 1937، ما هو الإطار التاريخي الذي كتب فيه هذا النص ؟

Scanned by CamScanner

ـ استخرج من النص عبارات تدل على سخرية الكاتب من الشرطي، ثم حللها.
ـ اجرد الإشارات الدالة على أن المغرب والجزائر كانا يعيشان تحت الاحتلال.

هـ ـ الأسلوب

ـ بين أهم سمات المعجم اللغوي في النص.
ـ لماذا وظف الكاتب الحوار الداخلي وهو يتبع الشرطي إلى مكتب رئيسه ؟
ـ تشكل السخرية مظهرا من مظاهر النص الوسطي، استخرج أمثلة لذلك مع إبراز وظيفتها.
ـ من الملاحظ أن السارد ينتقل، في هذا النص، بين ضميري المتكلم والغائب : أبرز ذلك، وأذكر وظيفة كل ضمير على حدة.

و ـ بنية النص

ـ قطع النص إلى وحدات حكائية، ثم ضع لكل واحدة منها عنوانا ملائما.
ـ ارسم خطاطة تستوعب المتواليات (م 1، م 2، م 3،...) الأساسية التي يتكون منها النص.
ـ قارن بين بنية النصين الافتتاحي والوسطي، وأبرز ما طرأ عليهما من تحولات وتغيرات.

منظر من مدينة منشستر

3.1- تحليل النص الختامي

(من الصفحة 278 إلى الصفحة 279)

«وبعد فإن قصة طفولتي يجب أن تقف هنا، وأن امتدادها هذا نفسه فيه كثير من التجاوز، ولكن لم يكن من اللائق وقف الحديث قبل انتهاء مرحلة، وقد انتهت المرحلة التي أتحدث عنها بسفري إلى مصر، ولذلك فإن من المناسب أن أمسك، فإن عالما ثالثا قد امتد أمامي لا أستطيع أن أزعم فيه أني كنت طفلا.

وهذه السطور التي كتبتها بعيدة عن الاستقراء، وإن كانت وافية المعالم وليس من المهم أن يعرف بها القارئ شخصي فما قصدت إلى ذلك وإنما قصدتُ أولا إلى إرضاء رغبة في نفسي وقصدتُ ثانيا إلى تسجيل حياة طفل عاش في بيئتين تكادان أن تكونا متناقضتين وإذا كان هذا قد توفر لكثيرين فما أظن أن الذين سجلوه إلا أقل من القليل، ولذلك أبادر إلى القول بأن الموضوع الشخصي ليس هو الذي يجب أن ينظر إليه القارئ على أنه مهم في هذه الفصول، إذا صح أن لهذه الفصول أهمية ما، وأستطيع أن أزعم فوق ذلك أن كتابتها كادت تمكنني وأنا منكب عليها، منهمك فيها من أن أحيا حوادثها مرة أخرى، ولذلك يخيل إلي هنا أنني أودعها بمرارة أشد من المرارة التي ودعتُ بها طفولتي.

وإنني لأعود بالنظر إلى الوراء، إلى هذه الخطوط المتعرجة التي رسمتها آثار قدمي في سفح جبل الحياة.

فهل أنا الذي يكتب هذه السطور في المرحلة الرابعة هو حقا ذلك الطفل الذي ترك عند السفح تلك الآثار ؟

كلا فإن جسمي غير جسمه، ثم إن الظروف غير الظروف، والمشاعر غير المشاعر، والتفكير غير التفكير.

فما كان يثير الفرح أو الحزن لا يكاد يثير شيئا الآن، ولذلك فإن الذي سوف يصبح كهلاً ثم شيخا ليس هو ذلك الطفل، ولا هو هذا الشخص الذي يكتب الآن، ولكنه امرؤ آخر سوف يتغير جسمه والظروف التي يعيش فيها والمشاعر التي يحس بها والتفكير الذي يفكره، ليخلق منه ذلك كله وغير ذلك كله شخصا جديداً، وعلى هذا الشخص الجديد أن يتحمل مأساة مغادرة الحياة».

أ ـ الحدث والبنية

تم التركز في النص الختامي على القضايا والأفكار التالية :

ـ وجوب وقوف السيرة الذاتية عند هذا الحد (مرحلة الطفولة).

ـ الإقرار بأن فصول في الطفولة تخلو من الاستقراء.

ـ ليست وظيفة السيرة الذاتية أن يعرف منها القارئ شخصية الكاتب، ولكن وظيفتها إرضاء النفس واسترجاع حياة طفل عاش بين بيئتين.

ـ ليست كتابة السيرة الذاتية مجرد تدوين لما مضى، وإنما حياة نحياها من جديد.

ـ تساؤل الكاتب ما إن كان الذي يكتب هذه السيرة الذاتية هو الطفل نفسه الذي كانه.

ـ الحياة الماضية لاتمّحي ولكنها كاللبنة أسفل الصرح تصير شيئا آخر من غير أن تختفي كلية.

ـ تعبير الكاتب عن أمله في أن يقرأه الذين كتب عنهم.

Scanned by CamScanner

ب ـ البعد النفسي والاجتماعي

عاش الكاتب محنة الصراع بين بيئتين متناقضتين، وحاول أن يوفق بينهما لخوفه أن يضيع هويته، من جهة، ولجزعه من أن يحرم نفسه من إيجابيات العصر وحقائقه من جهة ثانية، فعاش ممزقا بينهما في حالة من الاستغراب والخوف والتطلع. ويمكن أن نعيد توزيع المعطيات النفسية والاجتماعية في الجدول الآتي :

المعطيات النفسية	المعطيات الاجتماعية
ـ الكتابة عن الذات إرضاء رغبة نفسية. ـ مرارة توديع ما دُوِّن أكثر وقعاً على نفس من توديع الطفولة. ـ اختلاف الطفل والكاتب في مشاعرهما. ـ تحمل الشخص الجديد مأساة مغادرة الحياة.	ـ تناقض بيئتين مختلفتين واختلافهما. ـ وجود مفارقات كثيرة تميز بين الطفل والكاتب : الجسم، والظروف، والمشاعر والتفكير.

ج ـ القوى الفاعلة والأسلوب

نجد في هذا النص صوت السارد بمفرده يجلي نفسه من خلال مرآة نفسه. ومن خلال هذه المرآة نتبيّن أنها لاتعكس الكاتب عَكْساً آليا، لأن عملية الكتابة تحويل للذات المنظور إليها في زمان غير زمان تشكلها. وهذا مايدعم قولة جون أرتور رامبو Jean - Arthur Rimband : «أنا هو الآخر». نجد ذلك، بوضوح؛ في العبارات الأخيرة التي ينتهي بها النص.

الكاتب ≠ السارد = الطفل

وهذا ما يبين أن السيرة الذاتية لاتراهن على استرجاع الماضي الشخصي بأمانة وصدق، وإنما تعاود النظر فيه لنسج «الحقيقة الداخلية» للنص. لهذا ليس من المستغرب أن يكون الأسلوب جامعا بين **البعد التقريري** الذي يميز كل **سرد وصفي**، و**البعد السردي** المميز لنص السيرة الذاتية. فالأول مطبوع بأساليب الوجوب والشرط والصدق. والثاني مطبوع بأسلوب سردي يمتاز بنسبة من الشاعرية والذاتية.

2.2- صورة الغلاف

1.2.2- تتبع الحدث

أ ـ المتن الحكائي :

تحكي «في الطفولة» مسيرة حياة طفل مغربي تَنَقَّل بين بيئتين مختلفتين وما صاحب كل ذلك من بحث عن الذات وخلق نوع من التوازن بين ذاكرة مشبعة بثقافة غربية قوية وبين واقع متخلف لكنه جزء من عواطف الكاتب وحقيقة حياته وملابساتها.

ولد الكاتب في مدينة الدار البيضاء وقضى فيها بضعة أشهر قبل أن يهاجر صحبة والديه إلى مدينة

Scanned by CamScanner

منشستر، بإنجلترا، وقد كان ذلك بعد الحرب العالمية الأولى. اشتغل أبوه بالتجارة وسط جالية مغربية يشتغل معظم أفرادها بالتجارة، أيضا.

في منشستر سيسعد الكاتب بأمرين إثنين : ميلاد أخته أمينة وتعرفه إلى عائلة إنجليزية (آل باترنوس) جعلت من منزلها مكانا عزيزا على قلبه. وهناك سيقف على الفروق الجوهرية بين طبيعة المغاربة (المراكشيين) وطبيعة الإنجليز(سكان منشستر) مع التركيز على مظاهر الاختلاف. ولعل أهم ما ميّز حياة الطفل في هذه الفترة التكيف الكامل مع نظام الحياة الغربية في مقابل الارتباط الشديد والحنين الجارف الذي وسَم علاقة أمه ببلدها الأصلي. وقد بقي الطفل مرتبطا بهذه البيئة الغربية دون أن يحس بحالة المفارقة التي كانت تنتاب أمه مثلا وهي تستعيد ذكرياتها بالمغرب، خاصة حينما تجتمع مع غيرها من المغربيات. ولما اضْطرَّ إلى أن يصحب أباه وأحد أقاربه إلى المغرب من أجل حضور الزفاف، وقف السارد على طبيعة البيئة التي طالما شكلت مصدر انشداد أمه وحنينها، لكنه في المقابل سيشعر بالرضى والسعادة والطمأنينة بعد أن تبين ما تزخر به نفوس أهل فاس من طيبوبة وحب وحنان.

ولعل صدمة الكاتب كانت قوية لما قررت عائلته العودة إلى المغرب بشكل نهائي، بل إن أثر هذا الانقلاب سيكون مدويا عليه وسيجعله يشعر باليتم والغربة مادامت البيئة الغربية هي التي شكلت سماءه وأرضه. وإذا كان الكاتب قد وجد صعوبة جمة في تقبل حاضره، وبقي متعلقا بماضيه، فإنه سرعان ما بدأ مرحلة جديدة، هي وسط بين الطفولة والمراهقة، سيتمكن خلالها من إحداث القطيعة مع ذكريات الماضي ليستقر وعيه على حاضره مع ما رافق ذلك من تربية مكنته من الاندماج في بيئة المدينة التقليدية وسط عائلة محافظة مثّل فيها الجد قطب الرحى. ومما أسعف الكاتب على الانغراس في واقعه الجديد تعرُّفه أصدقاء جدداً، خاصة زملاءه في الكُتّاب، وبداية ولعه بكرة القدم.

ولما التحق بجامع القرويين وجد فيه مرتعا لكثير مما كان ينقصه من معارف عربية تتعلق بعلوم التوحيد والنحو وغيرها. وإذا كانت هذه العلوم لم تجد في نفس الشاب هوى، فقد كان لأحد العلماء الوطنيين دوره الكبير في تغيير مجرى حياة الشاب. فقد أصبح الأدب موضوعه الأول وغايته اللذيذة وجنته الموعودة. فبفضل هذا الميل صار الشاب يقتني الكتب والمجلات ويقرؤها بنهم شديد . ولعل من آثار الأدب على نفسه أنه شارك في بعض أعمال الوطنيين، فقد اندس بين زمرة منهم فقاموا بتحدي حاكم مدينة فاس فاعتقلوا جميعا ليقضي الشاب صحبتهم شهرا كاملا في السجن.

غير أن سفر الكاتب إلى القاهرة مرورا بوجدة ووهران ومرسيليا والإسكندرية اعتبر حدثا هاماً في حياته لأنه سيكون بمثابة قطيعة بين مرحلتين (الطفولة والمراهقة) وبداية مشوار سيحقق للكاتب اندماجا كليا مع ثقافته العربية. إن سفر الكاتب إلى القاهرة جاء تلبية لنداء داخلي وتحقيقا لرغبة موضوعية أثمرتها قراءاته للمجلات المصرية التي كانت ـ وقتئذ ـ تصل إل مدينة فاس.

ب ـ الرهان :

الظاهر أن سيرة في الطفولة تبدومجرد محكيات عن مراحل من حياة الكاتب وتاريخه الشخصي. والواقع أن الكاتب، وهو يستعيد تاريخه الخاص وتجاربه الفردية، يعمل بكيفية دالة على إبراز الجوانب السياقية والموضوعية التي أطرت هذا التاريخ وهذه التجارب.

Scanned by CamScanner

يتوخى الكاتب إذاً إبراز ما عاناه طوال حياته من محن وأزمات كانت وليدة تمزق حضاري وغموض في الهوية وإحساس بالاستغراب والخوف والتطلع. إن «في الطفولة » هي حفر في الذاكرة وتحليل لأنماط العيش ونقد واقعي لما كان يعيشه المغرب آنذاك. ولقد قصد الكاتب من وراء تشخيص التناقض وإبرازه والتعبير عنه وصف مظاهر التخلف والانحطاط التي ميزت البيئة المغربية، وهي بيئة أجبر السارد على العيش فيها قسرا. ولقد أفصح عن هذا الرهان صراحة في الصفحة 278 :

«وهذه السطور التي كتبتها بعيدة عن الاستقراء، وإن كانت وافية المعالم وليس من المهم أن يعرف بها القارئ شخصي، فما قصدت إلى ذلك وإنما قصدتُ أولا إلى إرضاء رغبة في نفسي ـ وقصدت ثانيا إلى تسجيل حياة طفل عاش في بيئتين تكادان أن تكونا متناقضتين. وإذا كان هذا قد توفر لكثيرين فما أظن أن الذين سجلوه إلا أقل من القليل، ولذلك أبادر إلى القول بأن الموضوع الشخصي ليس هو الذي يجب أن ينظر إليه القارئ على أنه مهم في هذه الفصول ...»[9].

كما استهدف الكاتب سرد وقائع وماجريات من تاريخ المغرب وحضارته تكشف عن حس نقدي ووطني.

ومن الرهانات الفاصلة التي لا ينبغي أن تعزب على ذهننا أن في الطفولة هو من بين النصوص السيرذاتية الأولى في تاريخ الأدب المغربي الحديث، **نص يجعل من الذات، أولا، ومن الواقع، ثانيا، موضوعا للتفكير والتأمل والتحليل والنقد.** كما أن هذا التوجه حرر النص السيرالذاتي من كثير من خصائص النثر المغربي التقليدي كما عكسته كتابات الرواد، ووقف بأساليب الكتابة عند مرحلة التحديث والتحرر من ربقة الصنعة والتكلف.

ج ـ دلالة الحدث ومغزاه :

إن تقييم دلالات الحدث في نص ابن جلون لا يمكن أن تتضح أمام العيان إلا بأخذ الجوانب الذاتية والموضوعية مأخذ الجد. فهناك، كما في أي نص سيري، تتبع كرونولجي لماجريات حياة الكاتب ومساراته المتعددة وما ميز حياته من أزمات ومحن وأفراح، ولكن هناك، في المقابل إرادة في اكتشاف الرابطة التي تجمع عالمين متناقضين، مع نية وطيدة في اقتراح بديل حضاري غربي من شأنه إخراج المغرب مما كان يعانيه من مظاهر التخلف والتدهور. فسرد الكاتب حياته الشخصية لم يمنعه من الانفتاح على واقعه بحس نقدي وواقعي.

ومعنى ذلك أن هذا النص، بما هو تمثيل لحياة صاحبه، لا يُفهم إلا بالنظر إلى الظرفية الاجتماعية والسياسية والتاريخية التي واكبت إنتاجه وتلقيه.

2.2.2- تقويم القوى الفاعلة

أ ـ جرد القوى الفاعلة

تتميز القوى الفاعلة في سيرة في الطفولة بالتنوع والتعدد. وتعددها راجع إلى كثرتها وتباين انتماءاتها، أما تنوعها فيعني أنها تغطي كينونات مختلفة من حيث طبيعتها وتكوينها وميولاتها. ومن أجل جرد هذه القوى الفاعلة وتحديد ميزاتها ستتم الاستعانة بكل المعطيات والمعلومات والأحكام التي وردت بصددها، أملاً في إعطاء صورة شاملة عنها. كما أن الجرد سيقتصر على تلك القوى التي كان لها دور فعال في مسيرة الكاتب إما إيجابا أو سلبا. وفيما يلي تفصيل ذلك :

Scanned by CamScanner

* **الكاتب (طفلا ثم شابا) :**

يقدم الكاتب نفسه في صورتين اثنتين، طفلا ثم شابا، وفي فضاءين اثنين، منشستر وفاس.

استهل الكاتب سيرته الذاتية بلحظة حاسمة في وجود كل كائن ، فقد ولد الكاتب بمدينة الدار البيضاء، ثم انتقل مع أسرته إلى مدينة منشستر (بإنجلترا) وهو لايزال رضيعا : « قيل إنني ولدت في مدينة الدار البيضاء ثم قضيت في تلك المدينة بضعة أشهر، ثم ركبتُ البحر بين ذراعي أمي إلى إنجلترا، وقد كان ذلك بعد الحرب العالمية الأولى» (ص 8). انتقل صحبة أمه وأبيه كغيره من المغاربة المهاجرين الذين اشتغلوا بالتجارة. أقامت أسرته في منزل محترم جعله قادرا على رؤية الوجه السمح والجميل لمدينة إنجليزية هادئة لايزال يقصدها الإنجليز لحد الآن من أجل الراحة والاستجمام ؛ لكن موت الأم كان حدثا قاسياً على الرغم من أن الطفل لم يكن قادرا على إدراك مدلول الموت وآثاره، لكنه سيستشعر قوته وظلاله بموت السيدة الأولى في أسرة آل باترنوس.

انفتح الطفل على ما كانت تزخر به منشستر من مظاهر الجمال والفن والمتعة والطفولة، فقد بدأ ينفتح على السينما والمسرح، وصار يرتاد الحدائق صحبة الآنسة «ميللي» وكوّن شلته من أطفال الحارة. شكلت أسرة آل باترنوس ملجأ محببا للطفل، فعند هؤلاء وجد الحنان واللطف والأخوة، وكان كلما سنحت الفرصة يمكث عندهم، بل يتذكر أنه ممنون لهم لأنهم استطاعوا أن يخففوا من أثر موت أمه على عقله وقلبه الصغيرين : «خفف من كآبة نفسي ما قالته ميللي في الحديقة ذلك المساء، وعزاني قليلا، ذلك أنني منيتُ نفسي بأن أمي معي في العالم وأنها تزورنا من آن لآخر بواسطة تلك الصفحة المضيئة [القمر] التي تنير سواد الليل البهيم» (صص 17-18).

دخول الطفل المدرسة الإنجليزية كان إيذانا ببداية مشوار جديد من حياته، ففي هذا الفضاء بدأ يكتشف الفروق بينه وبين غيره من أطفال منشستر، خاصة الفروق الدينية. ولعل أهم الفروق التي أثارت انتباهه كانت حينما سافر إلى المغرب بمعية أبيه وأحد أقاربه قصد حضور زفاف هذا الأخير. سيجد الطفل صعوبة جمة في فهم معطيات الواقع والثقافة والعادات والتقاليد. في فاس سيحل الطفل في منزل جده الذي أثار انتباهه بوقاره وهيبته وسخريته القاتلة. وستكون هذه الزيارة بمثابة بداية في تحول مصير الطفل واضطراره إلى الاندماج في بيئته الأصلية التي شكلت مادة لتأمله، خاصة حينما عاد إلى منشستر فحدث أصدقاءه، ومنهم «ريجي»، بما عاشه، في فاس، من لحظات تقع بين الواقع والخيال.

ولما اضطرت أسرة الطفل إلى العودة، نهائيا، إلى المغرب أدرك الطفل أن تاريخا قد مضى، وأن حاضرا يفتح ذراعيه له. لم يوافق الطفل على تلك العودة، بل إنها جعلت الذهول يستولي عليه وهو يتتبع حركات الاستعداد الدائمة بعين قلقة وقلب واجف، «بدأت أشعر لأول مرة أنني غريب عن البيئة التي عشت فيها ما يقرب من ثمانية أعوام وهي البيئة التي لم أعرف غيرها خلال الفترة التي عشتها» (ص 107). شرع الطفل في الاندماج في بيئته الجديدة رغم انتقاده اللاذع لنفسية أترابه من الأطفال ولباسهم، ونمط سكناهم. كانت الصعوبات التي واجهته في البداية حادة وشاقة سواء من جهة تعلمه العربية أو تكيفه مع أنماط التدريس في المدرسة الفرنسية أو في الجامع. ومما زاد اضطرابه موت أخته أمينة التي جعلت كل الأفكار السلبية تعاود ظهورها من جديد (موت أم آل باترنوس، موت أمه)، بل إن موت أخته كان إيذانا بموته هو الآخر :

Scanned by CamScanner

«لقد تغير كل شيء بعد وفاة أختي، لذلك كانت وفاتها فاصلا بين عهدين. وإذا كانت هي قد انتهت يوم توفيتْ فقد انتهيتُ أنا أيضا في ذلك اليوم. إن ذلك الطفل الذي ألقى بنفسه فوق صدر أخته الميت لم يقم أبدا. إنه ما يزال مكبّاً عليه إلى اليوم يعانق أخته ويناديها. أما هذا الذي قام فطفل آخر لا يمتُّ بأي صلة»(ص 133).

سنة 1937 كانت تاريخا فاصلا في حياة السارد فقد انتقل من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الشباب والمراهقة، ومما جعلها كذلك اقترانها بحدث سفره إلى القاهرة لمتابعة دراسته العليا صحبة صديقه **عبد الكريم بن ثابت**. لم تكن حياة الطفل بفاس سهلة، فقد تميزت بنوع من الاضطراب والحيرة ناجمين عما اعترى الشاب من تغيرات بصمت حياته ومالت بها يمينا وشمالا. فقد كان يفر من الفقيه الجبلي لممارسته هوايته المفضلة (كرة القدم) كما شرع في معاشرة بعض صعاليك الحي. ومما أيقظ مشاعر الخوف لديه انتقال الأسرة إلى منزل صغير بعد أن باع أبوه البيت إثر تضييعه ثروته التي جمعها لما كان في منشستر. ولم تنته شقاوته عند هذا الحد، فقد ذهب يوما صحبة أصدقائه إلى حمامات سيدي حرازم، وكانت صدفة جميلة أن كان **محمد الخامس** هناك، مما سمح للشاب برؤية عاهل البلاد والإعجاب به، والتعلق برموز بلده الذي كان تحت نَيْر الاحتلال الأجنبي. وفي القرويين سيصادف الشاب عينات مختلفة من الأساتذة تعلم على أيديهم أمور الدين واللغة، لكن أستاذا واحدا سلب عقله وأثر عليه تأثيرا بالغا، فقد كان شابا كما وصفه الكاتب يواظب على احتلال المسجد بعد صلاة المغرب. كان تأثر الكاتب به واضحا خاصة مع اختلاف الناس في تقديره وتضايق السلطة منه أشد الضيق خاصة وأنه كان «يتحدث عن أمجاد الإسلام الضائعة والدرك الذي انتهى إليه أمر المسلمين بسبب نسيانهم لمبادئ دينهم» (ص 251). وكان أن انضم الكاتب إلى مجموعة من الوطنيين الذين انخرطوا

مدينة وجدة (oujdacity.net)

في دائرة المقاومة، فتحدوا حاكم مدينة فاس وألقي القبض عليهم ليقضوا شهرا كاملا في السجن. إقبال الكاتب على قراءة العشرات من الكتب العربية الحديثة وتطور ذوقه الأدبي كان إيذانا بتفتق ملكته الأدبية والنقدية، فقد نشر مقالا بإحدى المجلات المصرية، يتطرق لجوانب من الحياة الأدبية بالمغرب، أثار ردود فعل متفاوتة في حدتها وطبيعتها.

* **الأب** :

يرسم الكاتب لأبيه صورة مفعمة بما هو إنساني؛ رجلا سافر صحبة أسرته إلى منشستر ليشتغل كغيره من المهاجرين المغاربة بأمور التجارة، لهذا كان يقضي جل وقته في مكتبه مدققا في أوراقه وأرقامه. كان غيابه عن المنزل ملحوظا، لكن لما مرضت زوجته أصبح لا يفارق المنزل إلا نادرا : «... فقد أصبح يقضي اليوم كله ـ على غير عادته ـ في المنزل..» (ص 15).

Scanned by CamScanner

حينما عادت الأسرة إلى المغرب اشتغل الأب بأمور كثيرة، لكنه سيضيع ثروته التي جمعها في إنجلترا، فاضطر إلى بيع البيت الذي اشتراه فانتقل مع أسرة أخيه للعيش في منزل صغير . وكان تعرفه بالحاج سببا في تجارته في البهائم والأبقار. وسيستقر به الأمر في آخر المطاف في تجارة ستجمعه بابنه من زوجته الأولى التي فارقها بالحسنى لما سافر إلى إنجلترا.

* الأم :

لا يستحضر الطفل من صورة الأم سوى أحوالها الجسدية والنفسية. فقد كانت شابة ضعيفة، طريحة الفراش بشكل شبه دائم لدرجة أن الطفل لم يكن يراها لأيام عدة. ومع تفاقم المرض كان يعاودها الطبيب كل صباح إلى أن وافتها المنية ذات يوم.

كان الحنين إلى المغرب يكاد يكون الخبز اليومي للأم، ولما تقررت العودة إلى المغرب كانت هي أشد الناس سعادة بذلك. وعندما عادت إلى المغرب حزنت كثيرا نظرا لتضييع زوجها كل ثروته.

* الجد :

اكتشف الطفل شخصية الجد (أحمد بن جلون) أول مرة حينما زار المغرب صحبة أبيه. كان الرجل متقدما في السن لكنه كان قادرا على نيل احترام أبنائه.

تكمن قوة الجد في سلطته التي لا يجادل فيها أحد، وسخريته التي كانت دوما سلاحا فعالا ضد من لايجد فيه ما لا يعجبه. فلما أبصر حفيده الآتي من بلاد الضباب يرتدي لباسا أفرنجيا أمر على التو بتغيير لباسه : «...غيروا هذه الثياب إنها ثياب الكفرة، هيا افعلوا شيئا لأراه في ثياب المسلمين» (ص 85)، بل إنه جعل من مهامه المقدسة جعل هذا الصغير جديرا بأن ينتسب إلى الإسلام والمسلمين ولما عاد الطفل، نهائيا، إلى المغرب أدرك أن جده شخصية هامة لما كان يتميز به من صفات ممثلة في «طريقته في الكلام، وأسلوبه في الضحك والابتسام، والحركات التي كان يأتيها» (ص 163). وفي الجملة، فإن شخصية الجد كانت مثالا حيا «للاستخفاف بكل ما ينوء به كوكبنا الأرضي، ويبدو أن السنين الطويلة التي قضاها في الحياة هتكت له الأستار عن حقيقة الحقائق» (نفسه). بل إن الجد كان قادرا على مواجهة الموت، بتشبثه بأسباب الحياة : «بيد أن جدي الذي عرك الحياة وعركته خلال هذه السنوات الطويلة لم يكن من السهل أن يفارقها دون مقاومة» (ص 218).

* الجدة :

« ...كانت الجدة طيبة القلب إلى حد بعيد». (ص 163)، لهذا كانت تتجنب الخوض فيما تخوض فيه النساء عادة من سخافات ومشاجرات ونميمة. ومن مظاهر طيبتها وحسن طويتها محاسبة زوجها على ما أقدم عليه من أفعال أو أقوال غير لائقة خلال اليوم. وعلى العكس من شخصية الجد فقد كانت الجدة شديدة الصلة بأحفادها لهذا كانوا يقضون عندها أوقاتا دون أن يشعروا بملل أو سأم.

ومن مظاهر طيبوبتها بكاؤها على فراق حفيدها لما كان على أهبة مغادرة المنزل :

«استوقفتني جدتي الباكية وقذفت في وجهي بعض الملح، ألا رحمها الله لقد أرادت بذلك أن تضمن رؤيتي مرة أخرى، ولكن الموت خيب آمالها» (ص 136).

Scanned by CamScanner

* أمينة (الأخت) :

هي أخت الكاتب وصديقته ومؤنسته عرفت المرض منذ ميعة صباها. أصيبت، في منشستر، بمرض تعافت منه بعد أن خضعت لعملية جراحية على يد الدكتور «ودل». لكنها لما عادت إلى المغرب تفاقم وضعها وتدهورت صحتها إلى أن فارقت الحياة مخلفة أحزانا في قلب أهلها.

تكمن أهميتها في أنها رغم كونها كانت أصغر من أخيها إلا أنها كانت أشد رزانة، وأكثر هدوءا وصبرا منه. كانت تطمئن أخاها وتخفف من خوفه وانفعالاته إبان نومهما المبكر.

* بنت الجيران :

يرسم الكاتب لبنت الجيران صورة تمزج بين الحب والخيال. تعرف الشاب عليها منذ أن زار المغرب أول مرة صحبة أبيه فعلقت صورتها بذهنه، لكنه لما عاد إلى فاس بدأ يكتشف معنى الارتباط والود فكانت كلما زارت البيت صحبة أمها مكث إلى جانبها أوقاتا طوالا. ومما زاد من ولعه بها قراءته قصص الحب والمغامرات، خاصة قصة مجنون ليلى، فكان أن توطدت العلاقة بينهما ؛ ولكن عندما علم أبوها بالأمر منعها من زيارة منزل الكاتب، بل وزوجها لرجل آخر. ورغم دفاع الشاب عن حبه إلا أن قرار الأب كان نهائيا وحاسماً.

* آل باترنوس :

آل باترنوس عائلة إنجليزية من أصل يوناني نزحت إلى إنجلترا فيما مضى من الزمان. تتكون من أخوين اسم أحدهما جورجي، واسم ثانيهما أندريه، ومن ثلاث أخوات (ميللي و أللييني وانجي). وقد مثلت هذه العائلة، خاصة الآنسة ميللي، مصدر سعادة الكاتب، فقد كان يقضي الساعات الطوال عندها، فهي التي كانت تفسحه وتخرج به إلى الحدائق والساحات العمومية، بل هي التي مكنته من تجاوز الحزن الذي ألم به إثر وفاة أمه.

* الأصدقاء والجيران :

هم مجموعة من الشخصيات تعرف إليها الكاتب إثر عودته من منشستر، فرسم لكل واحد منها بورتريه خاصا :

عبد الكريم بن ثابت	عبد الواحد	الحاج
صديق الكاتب ورفيقه إلى القاهرة، شاعر، من أسرة ميسورة.	صديق الكاتب، كبير السن، جميل المحيا، براق العينين، دقيق الجسم، شخصية جذابة قوية خيرة، قائد وزعيم ،ثابت الأعصاب، صارم أثناء اللعب، جم التواضع، دائم الابتسام.	جار الكاتب، في الخمسين من عمره، عصامي، شخصية نافذة وغنية، عنيف ومشاغب، يرتدي الثياب الجديدة، يتحرك ويسير كالصعاليك، صوته مجلجل، لا يراعي مقاما، صلف، متزوج من امرأتين .

* المدرسون :

اختلفت الصورة التي رسمت لكل مدرس على حدة. فهناك الطيب والعنيف والمجدد والمحافظ.

Scanned by CamScanner

يرسم الكاتب لمدرسي الفرنسية والعربية بورتريهات خاصة ومتمايزة :

مدرس الفرنسية	مدرسا العربية	
	مدرس مادة (العلم)	مدرس تحفيظ القرآن الكريم
ـ من أصل جزائري. ـ رجل نحيل. ـ يميل وجهه إلى العرض. ـ على رأسه العريض طربوش شديد القصر. ـ قصير القامة. ـ يرتدي برنسا دون جلباب. ـ شعر ذقنه الحليق كثيف/ شديد سواد شعر الحاجبين. ـ عيناه حادتان ضيقتان قلقتان. ـ أنفه أفطس. ـ يثير الضحك. ـ صوته حاد. كثير الصياح، يعاقب تلامذته عقابا مبرحا.	ـ كثير الصياح. ـ يضرب التلاميذ ويصيح في وجههم. ـ رجل بدين. ـ قصير القامة. ـ يرتدي جلبابا فضفاضا. ـ على رأسه عمامة واسعة الأرجاء. ـ ذو لحية كبيرة. ـ يضرب ويرفس ويصيح دفعة واحدة. ـ مزعج جدا.	ـ يمرن التلاميذ على حفظ القرآن الكريم. ـ رجل ربع القامة في العنفوان والقوة والحيوية. ـ جميل المحيا. ـ كث اللحية. ـ ذو عينين نفاذتين. ـ هادئ يحيط نفسه بهالة من الوقار والهيبة. ـ شديد التواضع في الشارع. ـ دائم الوعيد والتهديد في المدرسة. ـ حضور حصصه ليس إجباريا.

ب ـ الرؤية السردية

رغم التطور البالغ الذي شهده مفهوم الرؤية السردية منذ **هنري جيمس** (Henri, J) **وكلينث بروكس** (Brooks,C) **وروبير بين وارين** (Robert, B, W) **وستانزل** (Stanzel) **ونورمان فريدمان** (Norman, F) **وواين بـاوث** (Booth, W) **وتودوروف** (Todorov, T) **وجنيت** (Genette, G)، بقي تحديد **بويون** (Pouillon,J)[10] لوجهات النظر أحد المقاربات المتميزة بالوضوح والبساطة.

وهكذا نجد أن الرؤية السردية في سيرة ابن جلون تجمع بين «الرؤية مع» و«الرؤية من خلف»، على أن الرؤية السردية الأولى تبقى مهيمنة وطاغية على العملية السردية.

1 ـ الرؤية مع : تشكل ذات الكاتب محور الفعل السردي والمحفل الذي نرى من خلاله صورة العالم السردي سواء تعلق الأمر بذاته الخاصة أو الشخصيات التي ينتعش السارد من خلالها. ومما يدل على ذلك أن الأحداث المسرودة تتم من وجهة نظر «الطفل» الذي يفترض أنه مركز الأحداث وبؤرتها. فمن خلال شخصية الطفل يتم استرجاع الماضي، بضمير المتكلم ،في محاولة لبَنْيَنَة هذا الماضي، وسرد ما عاشه الطفل من أحداث في منشستر والبيضاء وفاس والقاهرة. كما يتم تقديم الشخصيات من وجهة النظر هذه، وقد صبغت برؤية ذاتية تعكس مشاعر السارد ومواقفه حيالها. فكل شيء يُقدم من وجهة نظره، الأمر الذي يجعل من السيرة الذاتية انعكاسا طبيعيا لهذه الرؤية وترجمة لنزعة ذاتية وخاصة.

2 ـ الرؤية من خلف : لكن السارد ـ في هذه السيرة الذاتية ـ ينوع من زوايا نظره ويعدد من الضمائر التي يتقنع بها من أجل تمكين المتلقين من رؤية الوقائع والأحداث والشخصيات والأمكنة. وأول ما نعنيه بمثل هذا

Scanned by CamScanner

القول تنويع الضمائر الذي مكّن السارد من عرض شخصياته كما لو كان محفلا آخر لا صلة له بالموضوع. والراجح أن هذه المسافة التخييلية تسمح للسارد ـ الذي هو في الآن نفسه كاتبا وشخصية ـ من اتخاذ موقف «شبه موضوعي» مما يعرضه. والواقع أن هذه الاستراتيجية السردية كثيرة الورود في نص **في الطفولة**، ومن أمثلتها:

- كثرة البورتريهات التي رسمها لغيره من الأشخاص (الحاج والفقيه الجبلي والجد والأخ الأكبر وزهور وعبد الواحد...)
- وجود محكيات يرويها آخرون عن الكاتب.
- إيراد محكيات ذاتية لشخصيات أخرى تسرد حكايات ذاتية.

إن الخرق النسبي للرؤية من الداخل التي تميز ، في الغالب الأعم، كل خطاب سيرذاتي يفسر بما شكل دوما موضوع اختلاف بين الدارسين في هوية السيرة الذاتية. إن السيرة الذاتية خطاب سردي يتمتع بالإمكانات نفسها التي تتاح لغيره من الخطابات الروائية والقصصية، ومن ثم لن يكون غريبا أن نجد كتّاب السيرة الذاتية يوظفون كل ما استحدثته «**العبقرية**» السردية منذ الأزل.

إن تنوع الرؤية السردية في السيرة الذاتية لابن جلون هو أحد مظاهر الكفاية السردية التي نجدها في قصصه المعروفة.

ج ـ دينامية القوى الفاعلة ومنزلتها

تلخص البنية العاملية أسفله العلاقات القائمة بين شخصيات السيرة الذاتية، وما ينشأ بينها من تفاعل وديناميه :

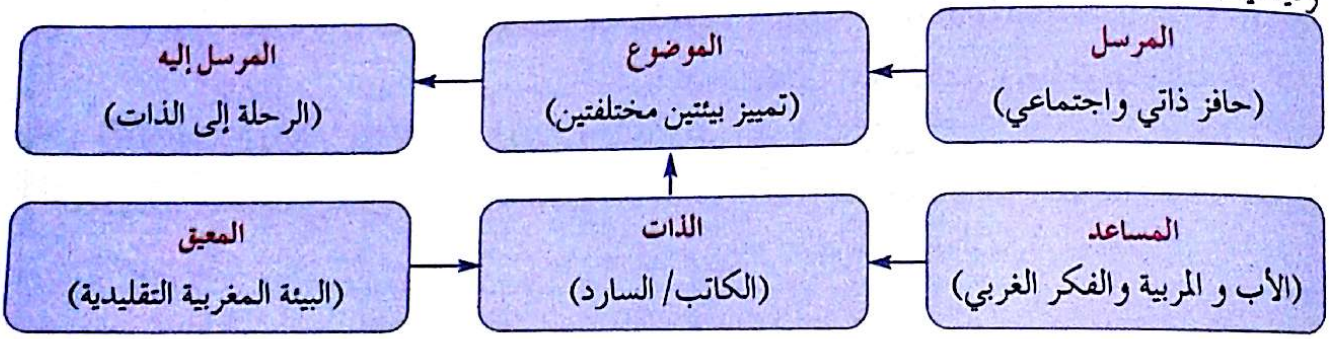

لن يتم استيعاب هذه البنية وتمثل ما تحفل به من دلالات دون تسجيل الملاحظات الآتية :

- تعتبر حياة كل شخص مادة ملائمة لإنجاز التاريخ الشخصي. وصياغة هذا التاريخ الشخصي هي أحد وجوه الحرية. وحينما اتجه **عبد المجيد بن جلون** إلى ماضيه قصد إعادة بنائه، فإنما لكي يؤكد أهمية الذات، من جهة، ولكي يقدم هذا الماضي من زاوية شخصية من جهة أخرى. إن التداخل بين الذاتي والموضوعي، أو الإلحاح على العناصر الذاتية هو سمة جوهرية في أي كتابة سير ذاتية.
- إن الطبيعة التقليدية للمجتمع المغربي هي أهم عائق أمام تفتق الذات وتحررها. ومن هنا فإن كل سيرة ذاتية هي مسار يهُمُّ حصول الفرد على حقه في الانعتاق والتحرر. **وفي الطفولة** تعكس الذاتُ الصراعَ الذي عاشته مع هذا الشرط سواء تمثل في صورة مؤسسات أو أفراد ذوي نفوذ أكبر.
- إن شخصية الأب ـ التي كان من الممكن أن تكون عائقا في إطار مجتمع مغربي تقليدي ومحافظ ـ

Scanned by CamScanner

تمثل، مقدارا كبيرا من الخروج عن النمطية التي طبعت صورة الأب في كثير من السيرِ الذاتية العربية سواء أكتبها رجال أم نساء[11]. والواقع أن هذا التغير في الذهنية راجع للأثر البالغ الذي مارسته الثقافة الغربية (الإنجليزية) على كل من حل بها وتمثل قيمها وتشرَّبها.

3.2.2- الكشف عن البعد النفسي

أ ـ المجال العاطفي

تشكل شخصية الطفل / الشاب البؤرة التي تنمو فيها العواطف نموا ملحوظا. فما دامت رؤية الكاتب هي الرؤية التي توجِّه الأحداث والشخصيات، ومادامت السيرة الذاتية، في الغالب، عملية إعادة بناء الماضي اعتمادا على رؤية انعكاسية، فإننا، ونحن نروم تمييز المجال العاطفي وتحديده ووصفه، سنعمد إلى عرض صورة لعينات من القوى الفاعلة وإبراز نوع المواقف النفسية التي كان يحملها السارد عنها. كما هو مبيَّن في الجدول الآتي :

القوى الفاعلة	طبيعة العلاقة النفسية
الأب	يعبر الكاتب عن إعجابه الكبير بأبيه وما يتسم به سلوكه من استقامة وصبر ومودة، وحتى لما باع الأب منزله وضيع ثروته لم يثر عليه أو يحاسبه بل أحس بحزن شديد حياله.
الأم	رغم أن الطفل فقد أمه مبكرا إلا أن إدراكه لمدلول الأم بقي يرن في مسمعيه طوال حياته.
الجد	واضح أن الجد كان مصدر مشاعر مختلفة فهو مخيف لما يصدر عنه من سخرية وتهكم، لكنه مثير للإعجاب والتقدير وهو يقاوم الموت وينأى بنفسه عن الاستسلام لسلطانه.
الجدة	تشكل الجدة مصدرا للعطف والحنان خاصة أن الطفل كان يتيما، فقد كانت تأويه عندها، وتخصه دون أبناء عمومته بالحدب والتقدير.
أمينة	كان مرض أمينة ثم موتها حدثا مفجعا جعل الكاتب يشعر باليتم. وبعد موتها مات جزء منه. وكلما تذكرها ألمت به الهموم والأحزان من كل ناحية.
محمد الخامس	يتضح من سياق النص أن الكاتب كان يعرف الملك من قبل، وكان على علم بما فعلته به الحماية الفرنسية، فلما رآه في حمامات سيدي حرازم ازدادت مشاعره الوطنية تأجُّجاً.
بنت الجيران	لاشك أن بنت الجيران كانت الشرارة التي أوقدت في قلب الكاتب أوار الحب وحرقته، فقد كانت سبباً في تحوله من شخص اجتماعي إلى شخص انطوائي يقضي جل وقته في التأمل والمطالعة.
آل باترنوس	أحس الكاتب منذ أيامه الأولى، بمنشستر، بنوع من الإعجاب والتقدير لآل باترنوس لأنهم منحوه الحب والحنان والمواساة.
الأصدقاء	يصرح الكاتب، في ثنايا مؤلَّفه، بأنه لايمكن أن يتصور حياته دون أصدقاء. فهم الذين منحوه الإحساس بالأمان، والثقة بالنفس، والقدرة على مواجهة المشاق.
المدرسون	تختلف مشاعر الكاتب حيال مدرسيه بين النفور والصد والملل والنقد، وبين الإعجاب والتقدير والانبهار.
الوطنيون	يبدو الكاتب مدينا لهؤلاء لأنهم أيقظوا في نفسه معنى ساميا وحبا لانظير له (حب الوطن والذود عنه بكل الوسائل).

Scanned by CamScanner

ب ـ الموضوعات النفسية

• **الحب :**

الحب ـ في معناه الشامل ـ هو كل عاطفة ممزوجة بالرقة واللطف. والكاتب (طفلا كان أو شابا) أفصح عنها وعانى من تباريحها كثيرا. فقد أحب أسرته وخاصة أخته ومربيته وأخاه الصغير. كما أحب وطنه رغم ما وجد فيه من مظاهر لم يألفها من ذي قبل لما كان في منشستر. لكن هذه العاطفة ستتبلور لاحقا ليتسع معناها ليشمل نوع الأحاسيس والمشاعر التي يكنها رجل لامرأة. وقد احتل حب الأدب والأدباء منه مكانا رفيعا.

أحس الكاتب بميول عاطفية تجاه النساء منذ أن كان في منشستر، فقد كان معجبا بانجي وميللي، تواقا إلى أن يصبح مثل جورجي، لكن هذه العواطف ستتبلور أكثر من خلال الحالات والوقائع التالية :

ـ تولد أحاسيس جديدة.

ـ حاولت الخادمة فاطمة اللعب معه، قد ولدت لديه احتكاكاتها به مشاعر عاطفية جديدة.

«طرقت الباب فأجابني صوت مرتعش : «من».

فأجبتُ «أنا، افتحي».

وفي لمح البصر سمعتُ حركة المزلاج، وانفتح الباب، إنها فاطمة (...) كانت بيضاء البشرة، واسعة العينين، داكنة الشعر تتدفق حيوية ونشاطا، فلما فتحت الباب ورأتني وحدي علا وجنتيها احمرار، ولاحظتُ في عينيها بريقا غريبا لم أدرك له معنى، ولكنني أحسست منذ اللحظة الأولى كما لو كنتُ أمام بنية متوحشة... أحكمتُ إغلاق الباب كما أوصتني والدتي، ثم سرت إلى جانبها في الممر الطويل تحت نور القمر وأنا أقص عليها ما حدث أثناء النهار في منزل جدتي، وقصصتُ عليها الآلام التي عانتها زوجة عمي وما تزال تعانيها. وقد استغربتُ لأنه بدا عليها أنها لم تكن تستمع إلى حرف واحد مما أقول، فلما صعدنا السلم القصير المفضي إلى ساحة المنزل دفعتني بغتة دفعة قوية ألقت بي على الأرض. ثم هربت تضحكُ ضحكات غريبة، فظللتُ على الأرض معتمداً على مرفقي وأنا أنظر إليها، بينما كانتْ تعدو هنا وهناك، كأنها قطة استفزتها لعبة» (صص 170-169، بتصرف).

ـ تعلقه وهيامه ببنت الجيران.

«وقلت لوالدتي وأنا ثائر ـ فقد كانت الجرأة تسعفني أمامها ـ أحبها، أحبها بكل جوارحي ولابدَّ أن أتزوجها، وإذا لم أتزوجها فسوف يحدث ما لاتحمد عقباه» (ص 232).

ـ حب الأدب.

أما حبه للأدب فقد تبلور في البداية على شكل قراءات مختارة لشعر شوقي (صص 252-255)، ثم تطور إلى أن أضحى الشاب كاتبا يثير الزوابع النقدية من خلال نشره لدراسة عن الحياة الأدبية في المغرب (الفصول 45، 46 و 47).

• **الاستغراب والسخرية والنقد :**

لا يجد الكاتب في صورة حياة «المراكشيين» (= المغاربة، مراكش = المغرب) شيئا يعجبه، فكل فعل يصدر عنهم أو كل سلوك يميزهم يصبح موضوع استغرابه وسخريته ونقده.

Scanned by CamScanner

فالسارد كان يحتك بالمراكشيين في منشستر من خلال زيارتهم لمنزل أسرته، وكان يجد أنهم غرباء تمام الغرابة بالنسبة إليه (ص 30). ولهذا رسم لهم صورة تشي بأنّ سلوكهم غريبٌ ومنافي للمألوف، يقول : «أي أناس هؤلاء، لايكاد يجتمع منهم ثلاثة أو أربعة في غرفة حتى يملأوا جوّها بأصواتهم العالية وضحكاتهم الصاخبة (ص 31). أما النساء فكن يثرنه بأصواتهن الصاخبة وزيهن الغريب (ص 31) كما أن الكاتب كان يحار في ابتعاد النساء عن الرجال : «هناك شيء بالذات حيرني دون أن أجد له تفسيراً، ذلك هو ابتعادهن عن الرجال حتى خُيل إلي أن بين الجنسين عداوة لاتمحيها الدماء..» (صص 31-32). ورغم إعجاب الكاتب بوجوه النساء المغربيات النضرة وجمالهن الغض فإنه كان يرثي لحالهن «فهن مثل أنجي في الجمال، فلماذا تكون أنجي ساحرة تشيع حولها الغبطة والبهجة ؟ ولماذا تكون – دونهن – رشيقة أنيقة وكل شيء فيها رائع جميل، كنتُ أرى من الواضح أنهن جميلات ولكنهن لم يكن أنيقات، وكنتُ أعرف أن ذلك يرجع إلى الزي الذي كنّ يرتدينه، إذ لم يكن فيه ذوق ولا أناقة» (ص 32). والكاتب / الطفل كان يكره هذه المبالغة في حياة المراكشيين، فهم يبالغون في صياحهم وضحكاتهم وأكلهم ولباسهم وغضبهم وعبثهم.

والواقع أن هذا الحكم الذي حسم فيه الكاتب حسما لم يتخلص منه وهو في فاس بين أهله وذويه وأقرانه. ومن الجوانب التي أثارت استغرابه وسخريته ما يلي : المدرسة المغربية التقليدية، وأساليب العيش، وطرق الأكل، والحفلات، والحمامات، والأسواق.

إن ارتباط الطفل بمنشستر، جعله يعبر عن صعوبة في التكيف مع بلاد مراكش. فالاستغراب يولد السخرية، والسخرية تولد النقد. وكل ذلك جاء حتما ليرسخ القيم الإنجليزية في وجدان السارد وعقله.

• **حصاد الموت :**

شكلت موضوعة الموت إحدى الموضوعات التي استبدت بفكر الطفل وعاطفته سواء بإنجلترا أو بالمغرب. وموضوعة الموت تمثل بداية تخطي السارد تفكيره الساذج باتجاه فهم أعمق لأشد القضايا الميتافزيقية تعقيدا. لقد كان لموت مسز باترنوس، وموت أمه وأخته ثم جده أكبر الأثر عليه :

* **موت مسز باترنوس :** أثار في نفسه الإحساس بغموض الموت وطابعه اللغزي، بل أيقظ مشاعر غريبة لديه تتصل بالموت والبعث والجنة والنار خاصة إثر الحديث الذي جرى بينه وبين المربية في الموضوع : «لستُ أذكر أن حديثاً مثل هذا الحديث، فقد كانت كل كلمة من كلماته تهزني هزا، ولم أفكر في الجنة ولا في السعادة الموعودة وإنما فكرتُ في النار، وكنت أنظر إليها بعينين ضارعتين متوسلتين كما لو كان في استطاعتها أن تنقذني من هذا المصير المروع الذي ينتظرني..» (ص 16).

* **موت الأم :** أما موت الأم فقد كان مصدر حزن الكاتب دون أن يدري معناه. وفي وصفه لآثار الموت على أمه قال : «.. وجه أمي بعينه قد علته صفرة ذهبية هامدة، وتدلت على جانبي شعرها الكستنائي الكث الطويل وقد غار فيه ما كان يحفل به من حيوية وبشر (...) فلمستُ بشفتي المرتجفتين خدها وأحسستُ ببرودة الموت تسري في أوصالي المضطربة واغرورقت عيناي بالدموع» (ص 16).

* **موت الأخت :** موت الأخت كان حدثا مفجعا ومؤلما في الآن نفسه، بل إن موتها كان بمثابة موت جزء من السارد. وتكمن أهمية موت آمنة في أنها ألهمته تأملات عميقة حركت فيه كل صغيرة وكبيرة :

Scanned by CamScanner

«لقد تغير كل شيء بعد وفاة أختي، لذلك كانت وفاتها فاصلاً بين عهدين. وإذا كانت هي قد انتهت يوم توفيت فقد انتهيت أنا أيضاً في ذلك اليوم. إن ذلك الطفل الذي ألقى بنفسه فوق صدر أخته الميت لم يفهم أبدا» (ص 133).

* **موت الجد** : موت الجد اعتبر مظهرا من مظاهر صمود الإنسان ورغبته في تحدي فكرة الموت مهما كان الأمر. فبعد أن كان الكاتب قد تشافى نسبيا من أثر الموت بعد مرور زمن مهم على وفاة أخته، جاء موت جده ليختم سلسلة من الأحزان والآلام. والطريف أن الكاتب وجد موت الجد أمرا طبيعيا : «ولما تبين الرشد من الغي، وأصبح أن جدي يحتضر، كانت غرفتي تقع في الدور الثالث من المنزل، فلم أستغرب حينما ترامى إلي أن «الرجل العظيم» قد استقر رأيه أخيرا على أن يسلم نفسه إلى فراش الموت» (ص 218).

4.2.2- تحليل البعد الاجتماعي

أ- المعطيات التاريخية

سلفت الإشارة إلى أن السيرة الذاتية هي نقيض التاريخ، فإذا كان هذا الأخير سيرة للجماعة، فإن السيرة الذاتية هي تاريخ الفرد. فالسيرة الذاتية، في أحد جوانبها، هي صياغة للماضي الفردي أو الجماعي، من خلال مصفاة الذات.

ـ تمتدُّ أحداثُ سيرة ابن جلون الذاتية من سنة 1919 إلى سنة 1937. وهما تاريخان يقترنان بتاريخ ميلاد الكاتب ورحلته إلى مصر. وهما معا يتصلان بمرحلة غنية بالأحداث والوقائع التاريخية الحاسمة في تاريخ عبد المجيد بن جلون أو تاريخ بلده المغرب. لقد احتلت فرنسا المغرب، كما هو معلوم سنة 1912 وفرضت عليه نظام الحماية البغيض، ولم تخرج منه إلا سنة 1956 بعد عراك مرير بينها وبين الحركة الوطنية المغربية.

ـ اعتمدت الحماية على مجموعة من الباشوات والقياد، ومنهم قائد مدينة فاس الذي أودع الكاتب وثلة من الوطنيين السجن مدة شهر لمجرد أنهم تحدوه بوقوفهم أمام منزله. ونظرا للنشاط المتصاعد لرموز الحركة الوطنية فقد تضايقت سلطات الحماية منهم جدا.

ـ عانى المجتمع المغربي عدة أزمات لعل أهمها ما ورد في النص، والمتصل بـ :

ـ وجود نظامين تعليميين أحدهما مغربي تقليدي والآخر فرنسي حديث.

ـ جهل كثير من المغاربة بالكتابة والقراءة.

ـ وجود خونة أو فئات من المتعلمين لا شيء يربطهم بما كان يعيشه المغاربة إذاك من حرمان وظلم وجور.

ـ ومن نتائج الظروف السابقة قيام وعي وطني، كان من أهم علاماته التعلق بشخصية الملك المغفور له **محمد الخامس**.

ـ شهد المغرب، في فترة الأربعينات والخمسينات، انتعاشا ملحوظاً للأنشطة الثقافية والأدبية، وكان من بواعث ذلك ما كان يتوصل به المغاربة من كتب ومجلات مصرية حفزت الكاتب وغيره (**عبد الكريم غلاب**، مثلا) على الكتابة والنشر. ومن مظاهر ذلك ما ورد في النص مانشره الكاتب في إحدى المجلات المصرية عن

Scanned by CamScanner

الحياة الأدبية في المغرب وما أثارته من ردود فعل مختلفة، علاوة على المقالات «النارية» التي كان ينشرها الكاتب في جريدة الأطلس بخصوص واقع الحال.

ب ـ المجال الاجتماعي

إن نص في الطفولة جزء من المجتمع الذي عاش فيه الكاتب، كما يعتبر المجتمع أحد روافد هذا النص.

وقد كتب عبد المجيد بن جلون سيرته الذاتية مركزا على تاريخه الشخصي، ولكن في اتصال واحتكاك بالوسط الذي عاش فيه سواء في منشستر أو في فاس. وبذلك فإن الكاتب أقام ثنائية بين مجتمعين على طرفي نقيض، وظل، هو شخصيا، يبحث عن تلطيف هذه الثنائية من أجل توازنه النفسي والفكري.

وننطلق في تحليلنا للمجال الاجتماعي من رصد المحتويات الاجتماعية التالية :

الوقائع الاجتماعية	الاحتلال الفرنسي للمغرب ـ الحرب العالمية الأولى والثانية ـ هجرة المغاربة إلى إنجلترا ـ صعوبة الاندماج ـ إختلاف المجتمع الإنجليزي عن المجتمع المغربي ـ أساليب التدريس بالمدرسة المغربية التقليدية والمدرسة الفرنسية الحديثة ـ حالة الطفل في إنجلترا وفاس ـ وضعية المرأة في المجتمعين الإنجليزي والمغربي ـ اهتمامات الطلبة بالسياسة الوطنية ـ الانخراط في صفوف الحركة الوطنية المغربية ـ المشهدان الأدبي والثقافي في مغرب النصف الأول من القرن العشرين ـ تأثر الأدباء المغاربة بمجريات النشاط الثقافي والأدبي بمصر.
الفئات الاجتماعية	عبد المجيد نموذج للمثقف المغربي المتشبع بالثقافة الغربية المائل إلى انتقاد معطيات الواقع التقليدي المغربي ـ باشوات وقياد في خدمة السياسة الاستعمارية الفرنسية ـ أساتذة تقليديون بالقرويين ـ زمرة الفقهاء ـ أساتذة وطلبة وطنيون ـ فئة التجار ـ باعة الكتب ...
قيم وأنساق ذهنية	الموقف من المجتمع الغربي، ومن الشخصية المغربية التقليدية، ومن النظام التعليمي التقليدي ـ آراء تجاه المجتمع المغربي (النقد، الإصلاح، المحافظة) ـ الخيانة ودعم الاستعمار ـ الشعوذة ـ الصراع المحتدم بين اتجاهات أدبية مختلفة ـ الاستغراب ـ السخرية ـ التطلع إلى آفاق واعدة ـ كتاب وأدباء فاعلون....

يمكن أن نلاحظ أن الجدول أعلاه يبرز الكثير من الجوانب الاجتماعية والتاريخية في النصف الأول من القرن العشرين، ويمكن أن نجملها فيما يلي :

• فَرْضُ الحماية الفرنسية على المغرب جعل قسما من المغاربة يهاجرون إلى أروربا، وهناك اكتشفوا، بعمق، الفروق الجوهرية بين بيئتين اجتماعيتين وثقافيتين متناقضتين، بل أدركوا المدى الذي بلغه التقدم في المجتمعات الغربية في مقابل تدهور الأحوال بالمغرب. وقد كان من مظاهر ذلك تدهور عام في النظام التعليمي وغياب للحقوق مما سيشجع على قيام حركة وطنية مناهضة للواقع الاستعماري. ومع قيام هذه الحركة استجدَّت معطيات أثرت إيجابا على نظرة المغاربة لواقعهم وصورتهم الثقافية الأدبية.

• انقسام في المواقف والآراء تجاه الاستعمار الفرنسي والطبيعة التقليدية للمجتمع المغربي، مع تباين في الوعي واختلاف في تقدير البديل (البديل الغربي أو البديل الوطني أو البديل التقليدي المحافظ).

Scanned by CamScanner

• بروز وعي جديد، ودعوة إلى التجديد في كل المجالات، وتحريض على انتقاد مظاهر التقليد والمحافظة.

والواضح أن شخصية الكاتب كانت جزءا من هذا الخضم. فقد تشبع بالقيم الغربية وحولها إلى قيم أصيلة، وانتقد القيم الشرقية واتخذ منها موقفا سلبيا، لكن ذلك لم يجعله خارج مطالب الحركة الوطنية التي طالبت باستقلال المغرب وتحرره وكرامته. كما يكشف السياق عن انخراط الكاتب في الحركة الأدبية والثقافية التي نشطت، في المغرب، خلال نهاية النصف الأول من القرن العشرين.

إن المجتمع المغربي لم يكن متفقا على الموقف نفسه فيما يخص سبل إخراج البلد من أزماته، لكن الأغلبية لم تتردد في اعتبار سيادة المغرب شرط وجوب. ويبدو ذلك في الاختيار الذي عززت به الحركة الوطنية وجودها ونضالها.

5.2.2- الأسلوب

أ- معايير ومواضعات

نعني بالمعايير والمواضعات اكتشاف المقاييس التي يحتكم إليها نص **في الطفولة** على المستويات اللغوية والشعرية والأسلوبية :

• **المعيار اللغوي :**

يندرج الوضع اللغوي لنص ابن جلون ضمن المسيرة التي طبعت تطور النثر العربي، في العصر الحديث، بعد قرون من الصنعة والتكلف، وبعد قرون من الإهمال والتهميش لصالح الشعر. وبعد أن كان النثر مثقلا بالبديع والزخرف، كما في المقامات وأدب الرسائل، فقد تطور تطورا ملحوظا وغيّر من طرائق التعبير فأضحى بسيطا وواضحا. وكما هو ملموس فإن نص **في الطفولة** يعكس هذا المنحى ويتوج مسيرة النثر المغربي في النصف الثاني من القرن 20. فليس هناك تكلف، ولا مبالغة في التعبير، وإنما هناك بساطة لكن مع قوة العبارة.

ولعل من أسباب تطور النثر المغربي، ونثر **عبد المجيد بن جلون**، عدة عوامل من بينها :

ـ التشبع الواضح بالآداب الغربية (الأدب الإنجليزي على وجه الخصوص).

ـ الاحتكاك المباشر بالنثر العربي في المشرق العربي.

ـ ظهور الصحافة.

ـ تطور دور النشر واتساع أدوارها.

• **المعيار الشعري :**

ومن أهم مميزات نص **في الطفولة** كونه من أوائل النصوص السيرذاتية المغربية. وهو يعكس مفارقة طبعت الأدب المغربي الحديث (البدء بالسيرة قبل كتابة النصوص التخييلية، قصصيةً أكانت أم روائيةً).

ـ الاهتمام بالجوانب العاطفية للسارد / الطفل وهو يحتك بواقعه المحلي بعد أن غادره مدة من الزمن.

Scanned by CamScanner

ـ توظيف الحكي المباشر على لسان الطفل.

ـ توظيف المحكي المنقول والمسرود قصد التلخيص والتموقع في أوعاء المتكلمين الآخرين، وهو ما يعكس سلطة ضمير المتكلم في هذه السيرة الذاتية.

وإذا كنا قد أشرنا، في غير هذا المكان، إلى أن **في الطفولة** تعكس بعضا من خصائص الكتابة السردية في نصوص **عبد المجيد بن جلون**، خاصة في مجموعته القصصية **وادي الدماء**، فإن أهم ما يسترعي الانتباه أن هذه السيرة الذاتية كتبت وفق معيار شعري واحد، ذلك أن تعدد المحكيات، وتعدد الشخصيات، ووجود حوارات لم يترتب عليه غنى أسلوبيّ.

ب ـ رؤيات العالم

تخترق النص ثلاث رؤى مختلفة، وكل رؤية تحتل مساحة معينة في فضاء النص، وهي :

1- الرؤية النقدية المشبعة بالثقافة الغربية :

ومن تجلياتها عرض الواقع المغربي التقليدي (العادات، والتقاليد، واللباس، والسكن، والنظام التعليمي، والممارسة السياسية، وأساليب العيش، وطرق الكلام، والمعتقدات) بكيفية نقدية وساخرة تقدم لنا هذا الواقع في صورة من الانحطاط والتدهور، وتجعل من الغرب (النموذج الإنجليزي) البديل المأمول. ويمثل الطفل/الشاب هذه الرؤية التي تكتسح النص وتهيمن عليه.

2- الرؤية الوطنية التوفيقية :

وتقوم هذه الرؤية على أساس الانفتاح على الغرب، لكن دون إفراط ولا تفريط حيث يبقى الوطن خطا أحمر لا يجوز تجاوزه أو المس به. وتمثل هذه الرؤية عيّنة من العلماء السلفيين المتفتحين، مثل الشاب الذي أعجب به السارد في فترة تردده على جامع القرويين.

3- الرؤية التقليدية المحافظة :

وهي الرؤية المهيمنة على الواقع الموضوعي الذي احتك به الطفل في إنجلترا، مشخَّصا في عادات المغاربة والمغربيات الثابتة على مستوى اللباس والأكل والحديث ووضعية المرأة وعلاقة الرجال والنساء، أو الواقع الموضوعي الذي تصارع معه الطفل حينما انتقل إلى المغرب بشكل نهائي. ويمثل هذه الرؤية الكثير من علماء القرويين وفقهاء الكتاتيب كالفقيه الجبلي، أو شخصية الجد.

6.2.2- استخراج البنية

أ ـ بنية النص

تتكون السيرة الذاتية **في الطفولة** من 48 فصلا، تغطي مدة زمنية مقدارها 30 سنة عاشها السارد بين فضاءات مختلفة تميزت بزخم من التجارب والأحداث والوقائع والمشاعر تباينت في حدتها وقوتها ودرجة تأثيرها على مصيره وميولاته الفكرية والعاطفية.

Scanned by CamScanner

وقبل أن نقترح الخطاطة الناظمة لبنية النص، نشير إلى أن فصول هذا النص تفتقر إلى العناوين التي من شأنها تأمين تمثل إلى مقصديته العامة، كما يفتقر إلى تنظيم طبوغرافي من شأنه أن ينظم تلك الفصول في أقسام تيسر التعرف إلى موضوعات المؤلف، لكن من الممكن أن نجمل بنية النص في جدول يتضمن أهم المتواليات الحكائية البارزة :

المتواليات	
م 1	رحيل السارد / الطفل، صحبة أبويه، إلى منشستر قصد الإقامة بها.
م 2	انفتاح السارد / الطفل على عوالم السينما والمسرح والحدائق والأطفال الإنجليز.
م 3	تأثره وحزنه لموت أمه.
م 4	ارتباط السارد / الطفل بأسرة آل باترنوس خاصة الآنسة ميللي باترنوس.
م 5	دخول السارد / الطفل المدرسة وبداية اكتشاف الفرق بينه وبين غيره من الأطفال الإنجليز (خاصة الفروق الدينية).
م 6	سفر الطفل وأبيه وقريب لهما إلى المغرب، وتعرفه إلى أهل أبيه، خاصة الجد بمدينة فاس.
م 7	سرده ما رآه في بلاد مراكش من عجائب وطباع مثيرة أثارت فضول الأطفال خاصة صديقه الإنجليزي «ريجي».
م 8	اضطرار السارد الطفل العودة إلى المغرب صحبة أسرته، وتعبيره عن ألمه وحزنه لمغادرة الأرض التي قضى فيها ثمان سنوات متوالية.
م 9	بداية اندماجه في بيئة فاس رغم انتقاده اللاذع لنفسية الأطفال المغاربة ولباسهم ونمط سكناهم مع رصده للتحولات اللغوية.
م 10	التحاق الطفل بالمدرسة الفرنسية في سن العاشرة، ووصفه لنمط التدريس وسلوكات المدرسين المغاربة والجزائريين.
م 11	حزن الكاتب / الطفل على موت أخته أمينة، ووصفه لما ألمّ به من حزن وغم.
م 12	سفر الكاتب / الشاب، صحبة صديقه عبد الكريم بن ثابت، إلى القاهرة سنة 1937 لمتابعة دراستهما العليا.
م 13	بداية ولع السارد / الشاب بكرة القدم، ومعاشرته لبعض صعاليك الحي.
م 14	انتقال أسرة السارد / الشاب بمعية أسرة عمه إلى منزل صغير بعد أن باع أبوه المنزل الكبير على إثر إضاعة كل ثروته التي جمعها لما كان في منشستر.

Scanned by CamScanner

المتواليات		
م 15	مشاهدته محمدا الخامس في حمامات سيدي حرازم، وبداية تعلقه برموز بلده.
م 16	التحاقه بجامع القرويين وتعبيره عن معاناته في معرفة نظامه وطبيعة فصوله والمعارف التي تدرس فيه.
م 17	قضاؤه شهرا كاملا في السجن صحبة مجموعة من الوطنيين على إثر تحديهم حاكم مدينة فاس.
م 18	تعلقه بإحدى الفتيات، لكن العلاقة بينهما ستنقطع نظرا لاكتشاف أبيها الأمر وقراره تزويجها لرجل آخر.
م 19	إقباله على قراءة العشرات من الكتب العربية الحديثة مما أسهم في تطوير ذوقه الأدبي.
م 20	نشره أول مقال عن الحياة الأدبية بالمغرب في إحدى المجلات المصرية، وسرده لما أعقب ذلك من ردود أفعال متشنجة من لدن البعض.

ب ـ تنظيم المتواليات الحكائية

تشكل قضية ترتيب المتواليات في أي خطاب سردي مظهرا بارزا، وذلك بسبب كونها قضية جوهرية وحاسمة. والسيرة الذاتية تتميز عما سواها، في الغالب، بتواز بين التوالي «الحقيقي» لأحداثها والترتيب الذي يتم وفق نظام سردي. ونص في الطفولة يحترم النظام الكرونولوجي المنطقي شأنه شأن المحكيات البسيطة. ففي المتواليات 1-12 نجد احتراما لهذا النظام القائم على الترتيب الزمني والمنطقي (السببي)، لكننا ابتداء من المتوالية الثالث عشرة نجد أنفسنا أمام مفارقات سردية (Anachronies Narratives)، ومن أمثلتها :

• الاسترجاع :

ـ «فلنرجع إلى الوراء لنرى ماذا صنع الطفل الذي رفع رأسه عن صدر جثة أخته في ذلك اليوم المشؤوم ليستأنف السير وحيدا في الحياة» (ص 141).

• الاستباق :

ـ «لا أريد أن أتحدث عن هؤلاء [الأصدقاء] هنا» (ص 72).(هو مايوحي بأنه سيتحدث عنهم لاحقا).

ـ «انطلقت إلى أحواز المدينة حيث قضيت بقية النهار، وهناك التقينا، وكان اللقاء حارا على نحو ما **سوف أتحدث عنه في فصل قادم**» (ص 153).

ج ـ التنظيم الموضوعاتي

أشرنا، في النقطة السابقة، إلى وجود مفارقات سردية مردها وصول الأحداث إلى نقطة منطقية ثم بداية العودة إلى أحداث تسبقها. والواقع أن هذا الترتيب لا يمنعنا من القول إن مؤلِّف **عبد المجيد بن جلون** يقوم على بناء تصاعدي نرتقي فيه من وعي الطفل البسيط والساذج أحيانا، إلى وعي الشاب الناضج المتمثل جيدا لذاته وما يحيط بها من ظروف وملابسات. ومعنى هذا أن التنظيم الموضوعاتي قد أناخ هو الآخر بثقله على منطق الترتيب.

Scanned by CamScanner

3 القراءة التركيبية

1.3- استنتاج

لقد أضحى جليا أن مؤلّف في الطفولة يرسم لنا حياة طفل وتاريخ شخصية عاشت في فضاءين اجتماعيين وثقافيين متناقضين. وأنه يعكس رغبة قوية لدى كاتبه في التعبير عما هو ذاتي وشخصي مع انكباب على مختلف الجوانب الاجتماعية والثقافية والتاريخية التي نسجت البيئة التي عاش فيها الكاتب طفلا ثم شابا، وبقي صداها يرن في الذاكرة والجسد. فمن الدار البيضاء إلى منشستر، ومن منشستر إلى فاس كان على السارد أن يعيش حالات نفسية وفكرية متناقضة. كان الطفل، في منشستر، قد عاش طفولة متفتحة، تحبل بالسفريات والعلاقات والأذواق الرّائقة، لكنه لما عاد إلى المغرب واجهته مشاكل كثيرة سواء على مستوى علاقاته الأسرية أو الاجتماعية أو التعليمية أو النفسية. غير أن السارد تمكن من التكيف مع الواقع المغربي دون أن يستسلم، إلى أن أتته فرصة الذهاب إلى مصر قصد متابعة دراسته العليا.

2.3- مقومات السيرة الذاتي

إن السيرة الذاتية هي كل محكي يجعل من حياة شخص واقعي ووجوده مادته الأولى والأساسية. ومعنى هذا الكلام أن السارد (المحفل السردي الذي يرتبط به ضمير المتكلم «أنا»)، والشخصية (ضمير المتكلم موضوع السرد)، والكاتب (منتج النص ومؤلفه) هم في حالة تطابق تام، ويحيلون، في آخر المطاف، على اسم العلم المثبت على وجه الغلاف.

إن التطابق بين هذه المحافل الثلاثة لا يجب أن يوجد فقط، بل يجب، أيضا، أن يتم التصريح به في النص. وهو ما يسميه **فيليب لوجون** بـ «الميثاق السيرذاتي». وهذا الميثاق هو عبارة عن عقد قراءة واضح الدلالة يتم فيه التصريح بانتماء النص إلى خانة السير ذاتي.

إن ما يهم القارئ ليس هو ما يتضمنه النص السير ذاتي من «حقيقة»، ولكن الذي يعنيه تَعَرُّف التطابق المشار إليه على مستوى التلفظ، وتبيُّن كيف تعامل الكاتب مع ماضيه الشخصي، وعاود النظر فيه بمنظور وفلسفة جديدين، ونسج من خيوطه المتشابكة عوالم تخييلية يمتزج فيها الواقع بالخيال. ومن مقومات الخطاب السير ذاتي لعبد المجيد ابن جلون نذكر مايلي :

- احترام ميثاق القراءة : رغم أن التطابق بين الكاتب والسارد والشخصية لم يتم التصريح به، فقد احتُرم أهم ما في الميثاق السير ذاتي، ونعني به احترام ميثاق القراءة القائم على الإيحاء بطبيعة النص وخانته الأجناسية في العنوان (في الطفولة).

- التضمين بدل التصريح : إن غياب تجنيس النص تمت الاستعاضة عنه بمقاطع داخل النص تفصح عن الطابع السير ذاتي للمؤلّف.

Scanned by CamScanner

- **هيمنة ضمير المتكلم** : يستعيد السارد ماضيه الشخصي بضمير المتكلم، مع توظيف ضمير المخاطب والغائب، في بعض الأحيان.

- **الإحالة على سلالته** : لم يثبت الكاتب اسمه الشخصي لا كاملا ولا مجزوءاً، لكن إيراد اسم جده (**أحمد بن جلون**) لا يترك مجالا للشك في أن الشخصية الرئيسة تحمل الاسم العائلي نفسه.

3.3- مقومات السيرة الذاتي

يجمع جل النقاد المغاربة الذين درسوا بواكير الأدب المغربي في مرحلة الخمسينات والستينات أن نص **في الطفولة** هو أول نص يشي بطاقة روائية حقيقية وطابع سير ذاتي. ولهذا ليس غريبا أن يحظى هذا النص بعناية فائقة من لدن كثير من النقاد والباحثين المغاربة، وسنقصر حديثنا، في الموضوع، على ناقدين وباحثين مغربيين: أحمد المديني، وحميد لحمداني.

1- الكتابة السردية في الأدب المغربي الحديث : التكوين والرؤية، أحمد المديني[12]

لقد خص **أحمد المديني** سيرة عبد المجيد بن جلون بدراسة بعنوان : **في الطفولة مشروع سير ذاتي في مسار روائي** (صص 242-259) ضمن مواد الفصل الأول من الباب الثالث.

- يعتبر المديني مؤلَّف **في الطفولة** : «بمثابة التوطئة الناضجة والجدية للرواية في أدب المغرب» (ص242). والأول ما يلفت النظر في هذا المؤلَّف السردي الطويل الوحيد لصاحبه : كونه يصدر في حلة كاملة دفعة واحدة مكرسا القطيعة بين ممارستين في السرد سواء على المستوى الاستطيقي أو مستوى الغرض» (نفسه).

ورغم أن الكتاب يقع في صلب الروح الوطنية بتجلياتها المختلفة، كما يقول المديني، «إلا أنه سيحرض على استراتيجية بديل تنهض تحديدا على إعادة الاعتبار لموقع الذات» (نفسه)، أهم غاياتها التبشير بقيم جديدة جاءت لتكمل القيم التي نادت بها الحركة الاستقلالية في المغرب.

- وبعد هذا التقديم شرع المديني في تلخيص **المتن الحكائي** لسيرة ابن جلون الذاتية معتبرا أن البعدين الذاتي والموضوعي حاضران بقوة في هذه السيرة الذاتية. ولعل أشد ما أثار انتباهه في هذه النقطة بالذات هو أن ابن جلون، وعلى عكس تقليد أدبي عربي «تواتر عند كتاب نذكر منهم توفيق الحكيم في **عصفور من الشرق**[13]، و يحي حقي في **قنديل أم هاشم**[14]، وطه حسين في أديب[15] فإن وضع الآخر ..(L'autre) يكف أن يكون هو الغرب (L'Occident) (ص 245).

- ومن الأسئلة التي استوقفت المديني، وهو يستعرض نص في الطفولة، سؤال الهوية الأجناسية لهذا النص، علاوة على ذلك وجوب التمييز بين السيرة الذاتية للطفولة عن السيرة الذاتية لسن الرشد، كما يضيف المديني نقلا عن **جاك لوكارم** (Jaques Lecarme). «من الصعب اقتحام المعيش الطفولي، ولكن هذا ما يصنع تحديدا قيمته». وعليه، يضيف الباحث، **محكي الطفولة** كثيرا ما يظهر كبحث باطني يتم الكشف عن صعوباته..» ص 249)

- وقد ختم المديني دراسته لمؤلَّف ابن جلون مقرّاً بأن هذا الأخير تتوفر فيه الخصائص الجوهرية لجنس السيرة الذاتية متظافرة.

Scanned by CamScanner

2- الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي، حميد لحمداني[16]

هذا الكتاب، في مجمله، كان من ضمن البحوث الرائدة التي استثمرت المنهج البنيوي التكويني في دراسة وتحليل نماذج من الرواية المغربية. يقع الكتاب في بابين. ولكل باب عنوان عام. وهكذا عنون الباب الأول بـ«الرواية المغربية وموقف المصالحة مع الواقع»، وتضمن الباب فصلين هما على التوالي :

ـ الفصل الأول : موقف المصالحة واللحظة السعيدة. ركز فيه الباحث على دراسة الروايات المغربية التالية: **سبعة أبواب، دفنا الماضي، المعلم علي** لعبد الكريم غلاب.

ـ الفصل الثاني : موقف المصالحة بين التبرير والانهزام والتسجيل. حلل ضمنه الروايات المغربية الآتية: **جيل الظمأ وإكسير الحياة** لمحمد لحبابي، **المغتربون** لمحمد الإحسايني، **رفقة السلاح والقمر والريح الشتوية** لمبارك ربيع.

أما الباب الثاني فوضع له العنوان التالي : الرواية المغربية وموقف الانتقاد للمجتمع. ويتكون الباب من ثلاثة فصول، وهي :

ـ الفصل الأول : انتقاد الواقع الاجتماعي وهاجس الغرب، وانصب فيه التحليل على الروايات التالية : في الطفولة لعبد المجيد بن جلون، **الغربة واليتيم** لعبد الله العروي، **المرأة والوردة** لمحمد زفزاف.

ـ الفصل الثاني : انتقاد الواقع والطريق المسدود. ركز فيه الباحث على تحليل الروايات التالية : **أرصفة وجدران** لزفزاف، **حاجز الثلج** لسعيد علوش، **زمن بين الولادة والحلم** لأحمد المديني، **وأبراج المدينة** لمحمد عز الدين التازي.

ـ الفصل الثالث : انتقاد الواقع وهاجس الصراع. ودرس فيه الباحث النصوص الروائية التالية : **الطيبون** لمبارك ربيع، **وقبور في الماء** لمحمد عز الدين التازي.

وكما أشرنا فإن دراسة حميد لحمداني لسيرة عبد المجيد بن جلون الذاتية جاءت بغرض ربط هذا النص السيري بالسياقات التي تشَكَّلَ فيها ومنها، ضمن رؤية منهجية تؤمن بالتقابل بين النسقيْن الأدبي والاجتماعي دون أن تكون هناك أية تبعية بينهما.

ينطلق لحمداني من حقيقة أن مؤلف في الطفولة تطغى عليه هواجس الطفولة، لكن كاتبها ليس طفلا في الوقت الذي باشر فيه الكتابة، وعليه فهي «... تحمل تصورا معينا للواقع الذي اضطلعت بتصويره، كما تعكس موقف كاتبها «الناضج» تجاه المرحلة التاريخية التي تتحدث عنها» (ص 254).

ـ تقوم سيرة عبد المجيد بن جلون الذاتية على التقابل بين البيئتيْن الغربية والمغربية.

ـ يشكل التناقض بين هاتين البيئتين المضمون الأساس في هذا العمل الأدبي.

ـ تنهض الرغبة العميقة في هذه السيرة الذاتية على الحفاظ على تلك الحياة التي عاشها الطفل في إنجلترا حتى وهو في بيئة مختلفة، وهذا ما يفسر لماذا ركز الكاتب كثيرا على عيوب بلده مع حضور كبير لعالم الغرب في تضاعيف الذاكرة.

ـ تتميز هذه السيرة الذاتية برصد دقيق لمظاهر الغرابة في المغرب خلال تلك الفترة، ومنها : أسلوب

Scanned by CamScanner

التدريس، وطريقة الأكل، وحفلات الزواج، والحمامات العمومية، والأسواق، والبضائع، وحلق الشعر، ووضع الأطفال، وحالة المرأة.

– ويفسر الباحث هذه النزعة «الإثنوغرافية» التي ميزت كثيرا من الروايات المغربية، خلال هذه المرحلة، بـ «شعور الكتاب بأنهم تجاوزوا، بوعيهم ونمط حياتهم، التخلف بسبب احتكاكهم بالحضارة الغربية»(ص 258) لكن مع فارق جوهري بين ابن جلون وغيره من الكتاب المغاربة الآخرين يتمثل في أنه لم يكن ينتمي إلى تلك البيئة التي شرع في تصويرها.

– شدة ارتباط ابن جلون بالغرب جعلته يركز على صعوبة التكيف مع بلاد مراكش (المغرب)، خاصة أنه وجد نفسه أمام قرار مفاجئ بضرورة العودة إلى بلده الأصلي.

وقد ختم الباحث تحليله لهذه السيرة الذاتية بتقييم مفاده أن هذا النص يخلو من « غرور الإدعاء لأهمية الدور المنوط بالبطل في مرحلة من التاريخ. فالطفل والفتى اللذان يصورهما الكاتب ينطقان بصدق ظاهر، لأنهما كانا يواجهان الواقع بمقدرتهما، مثلما يواجهانه أيضا بجهلهما أو ضعفهما» (ص 260).

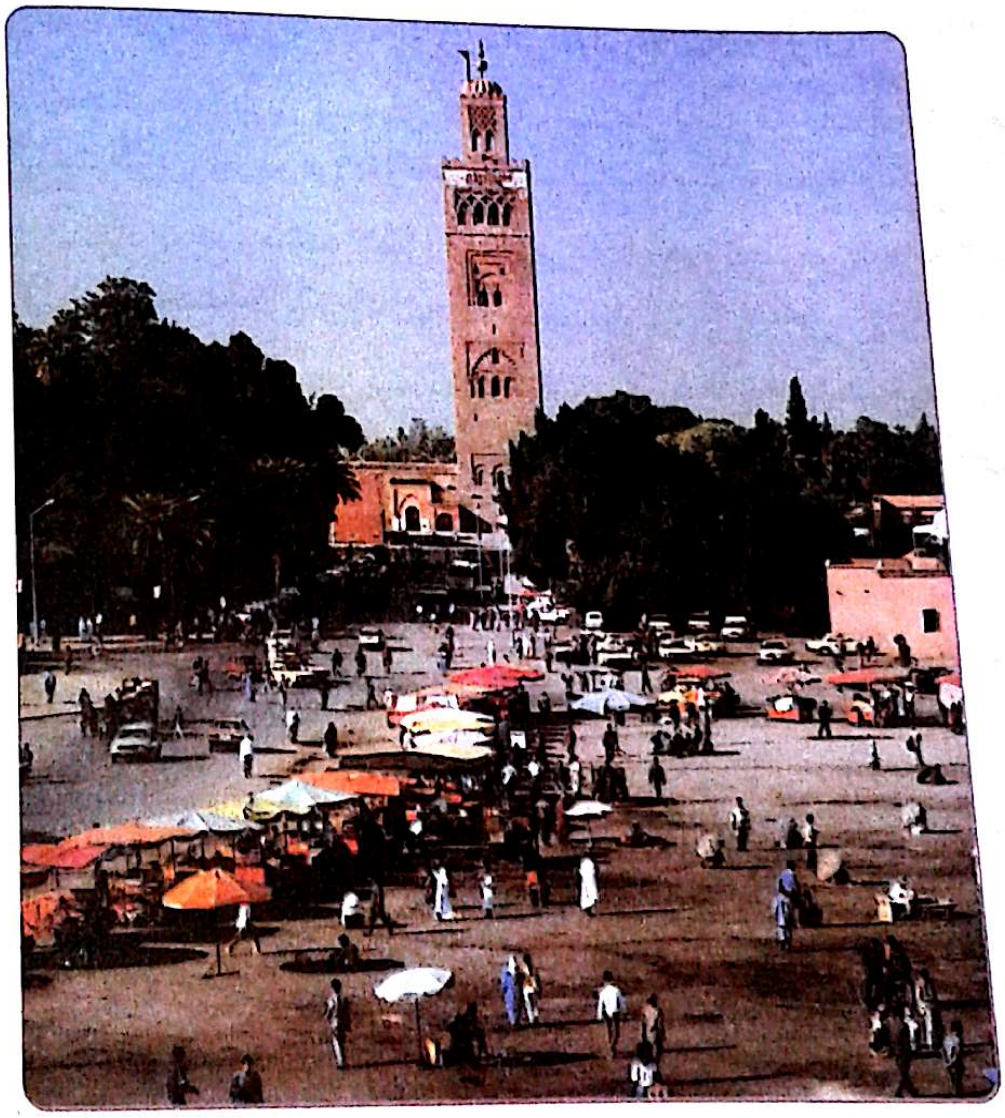

ساحة جامع الفنا بمدينة مراكش

MAROKKO Deutsche Ausgabe. Ed. ЭB BONECHI. P : 62

Scanned by CamScanner

الهوامش

1- تهاني عبد الفتاح شاكر : السيرة الذاتية في الأدب العربي : فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وعباس إحسان نموذجا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، 2005.

2- عبد القادر الشاوي : الكتابة والوجود : السيرة الذاتية في المغرب، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء ، 2000، ص 12.

3- May G : L'autobiographie, éd PUF, Paris, 1984, p.22.

4- Philippe Lejeune : L'autobiographie en France, (1971), Paris, Arman Colin, 1998.

5- يجب الإشارة إلى أن فيليب لوجون قد تراجع في كتابه «أنا أيضا» (1986) عن الكثير من أسسه النظرية السابقة، لأنه لم يكن يقصد صياغة مجموعة قواعد، بل ما كان يتمناه تحديد منطلقات تسعف على تفكيك عملية فهم وإدراك هذا النوع الأدبي بوصفه مشروعا كتابيا منفتحاً على الآفاق الذاتية واستهاماتها ونزواتها.

6- Genette ; G : L'Instance Préfacielle, in, Seuils, Paris, 1987, p. 150.

7- Ibid.

* ولد أحمد عبد السلام البقالي بأصيلا سنة 1954، وحصل على شهادة الإجازة في علم الاجتماع من جامعة القاهرة سنة 1955 . شغل مهمات ديبلوماسية في المغرب. له مؤلفات كثيرة في مجالات القصة القصيرة والرواية والمسرح والترجمة.

8- عبد الكريم بن ثابت (1917-1961) شاعر ودبلوماسي مغربي، ولد بمدينة فاس، ثم سافر إلى القاهرة ليتخرج من كلية الآداب بجامعة القاهرة. وقد أسهم الرجل في الحركة الوطنية. خلف قصائد ومقالات عديدة. شغل مناصب عدة حتى بلغ منصب وزير مفوض. نشر شعره بالمجلات المغربية والعربية، وقد جمعت مقالاته في كتاب بعنوان : حديث الصباح.

9- ويؤكد هذا الرهان قول أحمد اليابوري : «ليس [نص في الطفولة] حسب ما يبدو مجرد سرد لأحداث تتعلق بحياته الخاصة، بل إقامة مقارنة هادفة بين الحياة في مختلف أشكالها المجتمعية والتربوية والسلوكية والأخلاقية والفكرية، في قطرين أحدهما في قمة الحضارة والآخر في حضيض الانحطاط» : فن القصة في المغرب (1914-1966) رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب، الرباط، 1967، ص 174.

10- يميز بويون بين ثلاث رؤيات هي : 1- الرؤية من خلف : (Vision par derrière) وفيها تكون معرفة السارد كلية وشمولية، 2- الرؤية مع (Vision-avec) حيث تكون معرفة السارد والشخصية متساوية، 3- الرؤية من الخارج (Vision du dehors) وفيها يكون السارد أقل معرفة من أي شخصية.

Jean Pouillon : Temps et Roman, Gallimard, 1946, p. 74.

11- أمل التميمي : السيرة الذاتية النسائية في الأدب العربي المعاصر،م.سا صص 144-159.

12- أحمد المديني : الكتابة السردية في الأدب المغربي الحديث : التكوين والرؤية، ط 1، أكتوبر 2000، الرباط (333 صفحة).

13- توفيق الحكيم : عصفور من الشرق، دار الهلال، القاهرة، 1938.

14- يحي حقي : قنديل أم هاشم، دار المعارف، القاهرة، 1954.

15- طه حسين : أديب، القاهرة، 1935.

16- حميد لحمداني : الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي دراسة بنيوية تكوينية دار الثقافة، الدار البيضاء، ط 1، 1985، صص 253-261.

Scanned by CamScanner

أنشطة التقويم والدعم

1- أنشطة المناصات

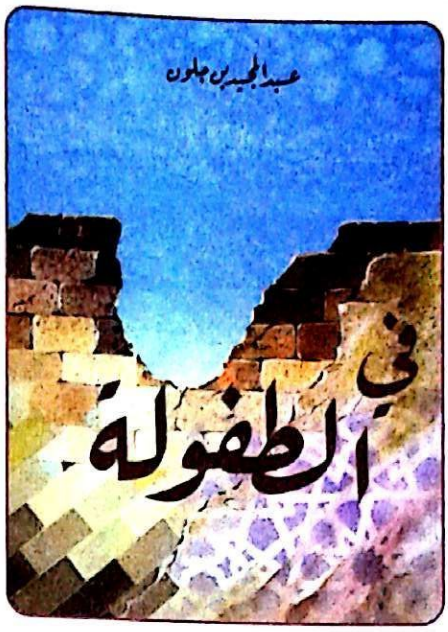

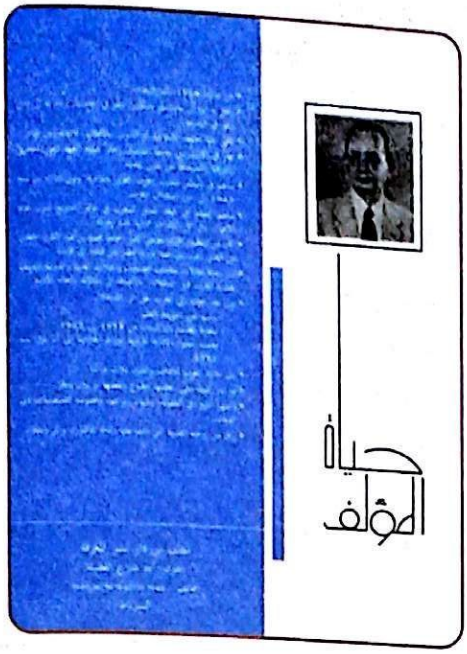

1.1- لاحظ غلاف «في الطفولة»، ثم أجب عن الأسئلة التالية :

أ ـ بم يوحي إليك العنوان ؟ علل علاقته بالجدار المخروم.

ب ـ عرِّف السيرة الذاتية في بضعة أسطر.

ج ـ أُذكر ثلاث سير ذاتية عربية، وثلاث سير ذاتية مغربية.

د– ما علاقة العنوان بالصورة ؟

2.1- إقرإ الكلمة المثبة على ظهر الغلاف، وأنجز ما يلي :

أ ـ لِمَ أثبتَ الناشر صورة الكاتب إلى جانب المعطيات المتعلقة بحياته.

ب ـ استخرج من تلك المعطيات ما يحيل على طفولة الكاتب، ثم علّل علاقته بالعنوان.

2- أنشطة النص الافتتاحي

- **أعد قراءة النص الافتتاحي، متبعا الخطوات الآتية :**

أ ـ استخرج الفكرة العامة التي يتمحور حولها النص.

ب ـ بين الرهان المتوخى من سرد الوقائع.

ج ـ حدد علاقة الذاتي والموضوعي من خلال إبراز كيفية احتكاك السارد الطفل بالعالم الجديد.

د ـ أُجرد القوى الفاعلة، ثم بين صفاتها وأدوارها.

هـ ـ أبرز العلاقة النفسية بين الطفل والقوى الفاعلة الآتية : الأب والأم و المربية والأخت (أمينة)، وآل باترنوس، والموت.

و ـ استخرج نماذج من الأفعال الدالة على المتكلم ثم عَلِّل علاقة ذلك بجنس السيرة الذاتية.

Scanned by CamScanner

3- أنشطة النص الوسطي

« شعرت لأول مرة بالغبطة لأن لي جدًا، ثم ازدادت هذه الغبطة حينما رفعت نظري إليه، كان يبتسم في سخرية وهو يتطلع إليّ بعينيه الذابلتين، كأنه يريد أن يقول : يا لتقلبات الأيام ! لقد جعلوا منك إفرنجيا يا صغيري، ولكن لا بأس، اقترب، فسوف أعلمك كيف تكون مراكشيا.

وهمس أبي : قبل يده يا فتى، قبل يده، فهذا جدّك.

فاقتربت منه في ذعر وقد نسيت كل من حولي وما حولي، ولثمت بشفتين مرتعشتين يدا مغضنة، فأخذني الشيخ من يدي وهو يقربني إليه قائلاً : وأخيرا ها أنت ذا، اقترب، اقترب يجب أن تخلع هذه الثياب الضيقة وتستبدل بها ثيابا فضفاضة واسعة. هل أنت خائف مني ؟! اقترب، اقترب.

كنت أرتعش كالريشة في مهب الرياح، وأنا أنظر إلى هذا الرجل الصارم الذي قيل إنه جدي أي أنه والد والدي. هذا هو الرجل الذي ربى والدي وعلمه، هذا هو الرجل الذي أتساوى أمامه أنا وأبي، ولكن خيل إليّ أن أبي يحتفظ بشيء من شخصيته ونحن أمامه، فاستغربت لهذا.

كان يبدو لي أن جدّي سوف يصيح في وجه ابنه الذي هو أبي : أين تأخرت كل هذا الزمن الطويل؟ وفيم كان تأخرك ؟ لقد كان يجب أن تكون هنا منذ زمن بعيد، ولكنك تأخرت.

ولم يكن من المستبعد عندي أن ينهض جدي مهددا وأن يهرب أبي خائفا، ولكن شيئا من هذا لم يحدث.

وإذن فإن العلاقة بين جدي وأبي شيء آخر غير العلاقة بيني وبين أبي. ولكن بينما كانت هذه الأفكار الصبيانية تتداعى بسرعة في فكري شق الصفوف عمي الذي استقبلنا في الدار البيضاء وهو يصيح :

هذا هو الفتى الذي نشأ في بلاد الإنجليز، ألست ترى ثيابه ؟ ألست تشعر بأنه فتى غريب ؟ فلم يجب الشيخ ببنت شفة، وإنما اقتصر على نقل نظره منه إليّ ومنه إليه كأنه يسخر منا معا.

قال عمي : هيا تحدث إلى جدك بالإنجليزية.

ولكن جدي ضحك ضحكة ممطوطة استغربتها منه، فخيل إليّ أن من الواجب أن أرفع صوتي بالعويل. واستولى عليّ شعور مرعب هو أنني خلقت لأكون غريبا ! ففي البلاد التي أتينا منها كان الناس ينظرون إليّ على أنني غريب، وفي البلاد التي يقال إنني منها نظر الناس إليّ أيضا على أنني غريب ! ولذلك فقد أصابني شعور يشبه الشعور بالاضطهاد.

وصاح جدي في غمرة من الصمت : غيّروا هذه الثياب ! إنها ثياب الكفرة، هيا افعلوا شيئا لأراه في ثياب المسلمين. ثم أقبل عليّ وهو يضحك ليقول : سأعلمك، سأعلمك كل شيء أيها الصغير حتى تصبح جديرا بأن تنسب إلى الإسلام والمسلمين. وكأن الكفر يتمثل له في الثياب التي أرتديها، وكأن الإيمان يتمثل له في الثياب التي أمر بأن أرتديها في صرامة ممزوجة باللين». (صص 84-85).

- **إقرإ النص قراءة متأنية وفاحصة، ثم أنجز ما يلي :**

أ ـ حدد الحدث الرئيس الذي يدور حوله النص.

ب ـ على من بأر المؤلّف وجهة نظره، ولماذا ؟

ج ـ استخرج عناصر البطاقة الدلالية للجد، مركزا على ما يلي: الصفات الخارجية والسمات النفسية وموقفه من لباس الطفل.

Scanned by CamScanner

د ـ «واستولى عليّ شعور مرعب هو أنني خلقت لأكون غريبا ! ففي البلاد التي أتينا منها كان الناس ينظرون إليّ على أنني غريب، وفي البلاد التي يقال إنني منها، نظر الناس إليّ أيضا على أنني غريب ! ولذلك فقد أصابني شعور يشبه الشعور بالاضطهاد» فسر هذا المقطع وتوسع فيه مستأنسا بأمثلة وأدلة مناسبة.

هـ ـ أوضح علاقة الحفيد بجده، مبينا وجهة نظر كل واحد منهما حيال الآخر.

و ـ حول الفقرة الأخيرة إلى ضمير الغائب، ثم أبرز ما طرأ عليها من تحولات دلالية وسردية.

ز ـ أنجز البطاقة الدلالية للشخصية الرئيسة وفق ما يلي :

مميزات الشخصية وأدوارها	الكاتب / طفلا
1- صفاتها الجسمية.	
2- سماتها النفسية والاجتماعية.	
3- أدوارها.	

4- أنشطة النص الختامي

« .. هل ضاع ذلك الطفل نهائيا وجاء غيره على الأثر كما قال الشاعر المرحوم ؟

كلا أيضا.

فإن في مكان ما مني بقية من تلك الأيام الذاهبة، إنها كاللبنة في أسفل الصرح صارت شيئاً آخر ولكنها موجودة فيه على كل حال، وستبقى موجودة مهما علا الصرح قائمة بوظيفتها وأن شأنها بالنسبة للناظرين، أو للذين لا يتعمقون النظر بتعبير أصح.

لم يبق إلاّ أن أشير إلى أنه كان بودي لو قرأني من ورد ذكرهم في هذه الصفحات منذ وفاة مسز باترنوس إلى أن انتقلت إلى مصر، فأنا أذكرهم وأعبر لهم عن حبي وتعلقي بهم، ولكن الكثيرين منهم لايعرفون عني شيئاً، وخصوصا الزائفين ...

فالتحية العاطرة للذين لايزالون يسيرون على صفحة الكوكب الأرضي... والرحمة الواسعة لمن تزدحم رسومهم فوق صفحة القمر المنير، كلما تبوأ عرشه متلألئاً في السماوات ..» (ص 279).

- **إقرإ النص قراءة متأنية مسترشدا بالتوجيهات الآتية :**

أ ـ ما موضوع النص ؟

ب ـ لمَ رَكّز الكاتب على هذا الموضوع ؟.

ج ـ من يتولى عملية السرد ؟ وبأية وجهة نظر ؟

د ـ اجرد القوى الفاعلة مبرزا وظائفها وسماتها النفسية والاجتماعية.

5- أنشطة الإنتاج

أ ـ تخيل أن الآنسة ميللي قرأت ما قاله عنها الكاتب. أُكتب موضوعاً تعبر فيه على لسانها عن مدى شكرها لما قاله الكاتب في حقها.

ب ـ اكتب نصا سير ذاتيا في خمسة عشر سطرا تحكي فيه ما وقع لك في طفولتك.

Scanned by CamScanner

التقويم الإجمالي

« وهكذا أصبح ذلك الطفل القديم بين عشية وضحاها فتى مراكشيا خالصا، لا يحفظ من حياته الماضية إلا الذكريات التي رسبت في الأعماق، وأصبح من المستحيل أن تطفو. وكنت من آن لآخر أذكر قول ميللي بأننا سوف ننساهم كما نسيهم المراكشيون من قبلنا، فأرى في ذلك ما يدعو إلى الاستغراب. وبات في استطاعتي أن أستحضرها أمام مخيلتي فلا أحس بأنفاسي تحتبس، لقد استحال اللهيب إلى رماد.

أما أختي فما كادت تحل بهذه البلاد حتى انتبذت زاوية من زوايا المنزل، ولم تستطع أن تنسجم مع الحياة الجديدة، لذلك ظلت تتبع الحركات والسكنات بعينين منطفئتين في وجه شاحب. وكانت نظراتها العليلة تطفح بضجر ممزوج بالسخرية، ومع ذلك ظلت معتصمة بعدم المبالاة... وكان وجهها يزداد شحوبا مع مرور الزمن، وكانت العلة ماضية في ارتشاف البشر من وجهها الباهت الحزين.

الدمج والدي في الحياة المراكشية منذ اليوم الأول، ولكن أبي مع ذلك ظل شارد الفكر، مستغرقا في حل ألغاز العملية الحسابية الوهمية التي كان يخيل إليّ أنه ما يزال منهمكا في حل رموزها منذ أيامنا الأخيرة في منشستر. ولكن كان يبدو أنه لم يصل فيها إلى أي حل». (صص 118-119).

- **اقرإ النص قراءة متأنية، ثم انطلق منه لإنجاز الأنشطة الآتية :**

1- ارصد التحولات التي طرأت على حياة السارد وأبيه وأخته.

2- بين الأسباب الذاتية والموضوعية التي أبطأت اندماج السارد في البيئة الجديدة، ثم أبرز مانجم عن ذلك من آثار نفسية.

3- ما النقد الذي وجهه السارد إلى البيئة المغربية مركزاً على المواضيع التالية : مرفق التدريس وحالة الأطفال ووضعية المغرب ؟

4- أُذكر الرؤيات للعالم التي ركز عليها الكاتب ثم توسع فيها مستدلاً بأمثلة وشواهد مناسبة.

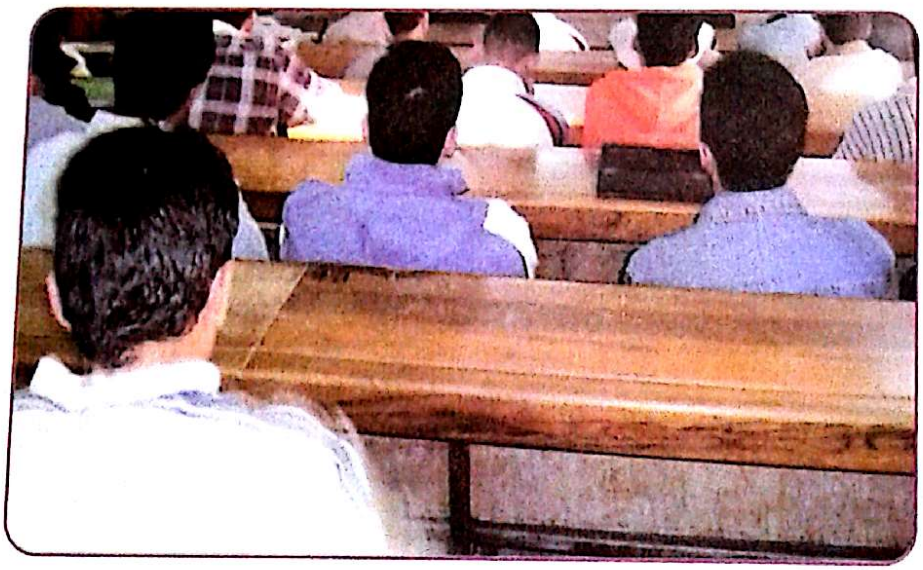

Scanned by CamScanner